علي الطنطاوي

بغداد

ذكريات ومشاهدات

المكتبة الازهرية

الطبعة الأولى
١٣٨٠ - ١٩٦٠

مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب اليه ونستغفره
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،
اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك ،
اللهم اني أسألك أن تنفع به ، وأن تثيبني عليه ،
وصل اللهم على سيّدنا محمد معلّم الخير وعلى آله
وصحبه ومن تبعهم باحسان .

فلم بغداد

كتبت سنة ١٩٥٦

لما بدت لي بغداد من كوّة الطيارة[1] ، تلوح في وهج الظهيرة ، كأنها حلم الحرية يلوح لسجين ، أقبلت انظر اليها من خلال الزجاج ، وأقبل الماضي ، ماضي بغـــداد ، ينظر الي من خلال السنين ، وارتدت بي الذكرى الفاً وخمسمئة مرحلة في طريق الزمان ، ثم وقفت بي على درب القرون ، أراها وهي تمر بي قرناً بعد قرن ، وأشاهد مواكب الأيام وهي تجوز بي موكباً اثر موكب ، كـ (فِلْم) في سينما ، تعرض فصوله (قصة بغداد) ، ولو كنت أستطيع أن أعرض (الفلم) كله ، لأحسستم أنكم تعيشون معي في قلب التاريخ ، وتحيون معي (أشخاصاً) في هذه القصة العبقرية التأليف والاخراج، ولكن الفلم طويل ، فاكتفوا بهذه اللمحات الخاطفة من هـــذا (الفلم) العظيم .

* * *

نحن الآن في مطلع الفلم ، قبل الف وأربعمئة سنـــة ، وبغداد قرية صغيرة ، عندها سوق للغنم والجمال ، ومن حولها السواد فيه النخيل ، ومن وراء السواد هذه الصحراء التي تتلظى فيها الرمال ،

---

(١) في زيارتي الاخيرة لبغداد سنة ١٩٥٤

وتتوقد الشمس ، ويبدو من كل جهة فيها وجه الموت يتربص لكل قادم عليها من غير أهلهـــا الذين أنسوا بالموت حتى رأوا فيه الحياة ، يعيشون عيش الأسد في آجامها ، يُدْلون بمثل ظفر الأسد ونابه ، ويطوون صـدورهم على مثل جرأته ووثابه ، لذلك كانوا يحتربون ويتقاتلون ، اذا لم يجدوا من يحاربون ويقتلون ، لا شريعة لهم إلا شريعة القوة ، ولا حكم إلا حكم السيف .

وفي جوار هـــذه القرية الخاملة كانت تقـوم المدائن ، قرارة كسرى شاهنشاه ، وفيها عرشه وايوانه ، العجم يسجدون بين يديه ويكفّرون[٢] له ، والعرب يكبرون مكانه ويخافون سلطانه ، ويسمون عاملًا من عماله (هو مدير ناحية الحيرة ، النعمان بن المنذر) ، يسمونه ملك العرب .

ويدور الفلم ، ويبدأ فيه فصل جديد .

انظروا ، لقد ماج هذا البحر من القبائل التي كانت تسكن الصحراء ، وتحرك واضطرب ، ثم جرى فيه تيار قوي يجرف في طريقه كل شيء ، لقد اتحد القوم المتفرقون ، ونبذوا راياتهم وهي شتى ليحملوا راية واحدة جديدة ، هي راية القرآن ، يقودهم تحتهـــا (المثنى بن حارثة) نحو بغداد .

وها هم اولاء يتقدمون ، ويتقدمون ، ويتقدمون ، لقد كان العجب العاجب ، هؤلاء البدو الجاهلون ، ملكوا ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم ، وشادوا في مكانه ملكاً أنفع منه وأبقى ...

---

(١) ينحنون تعظيما .

ويدور الفلم ، وتظهر صورة ثانية لبغداد .

نحن في سنة ١٤٥ للهجرة ، وقد اندثرت القرية وذهب بهـــا ريب الزمان ، وعادت الارض مراتع وبساتين ، وكان صباح يوم صائف من أيام الخريف ، فوقف بهذه الســـاحة ركب من الناس ونزل رجال يذرعون الأرض ، ويقيسون طولها والعرض ، فسألت : من هؤلاء ؟ وماذا يصنعون ؟

قالوا : ألا تعرف من هؤلاء ؟ يا عجباً ! هذا هو الرجل الذي عاش ثلثي حياته عالماً مغموراً لا يدري به أحد ، وعاش ثلثها الثالث وهو الحاكم المطلق ، في نصف المعمور من الأرض ، من أقصى المغرب الى أقصى المشرق ، هـــذا هو الرجل الفولاذي الصلد ، الذي بنى دولة عاشت راياتها وشاراتها ، واستمر ذكرها على المنابر أكثر من ثمانمئة سنة ، هذا (ابو جعفر المنصور) جاء يقيم ها هنا مدينة .

ولم يغتصب الرجل الحديدي ، ذراعاً واحداً من الأرض ، وما كان الغصب يوماً من صفات الخلفاء المسلمين حقاً ، بل اشـــترى الأرض من أصحابها بأكثر من ثمنها ، وأقام مدينته عليها .

لقد مر على هـــذا المشهد سنتان ، ودار الفلم دورة جديدة واذا المدينة عامرة .

أترونها على الشط الغربي لدجلة ؟ انها مدورة ، على هندسة مبتكرة ، ما في المدن شبيه لها إلا دهلي الجديدة (نيودلهي) اليوم ، لقد احتفل بافتتاحها سنة ١٤٩ . وبلغت نفقات بنائها ١٨ مليون دينار . أتعرفون كم تبلغ من نقود هذه الأيام ؟ لقد ذكر المؤرخون أن الدينار كان يشترى به يومئذ تسعة عشر خروفاً ، وألف ومئتا رطل من التمر ،

وكانت أجرة العامل مدى ستة أشهر ديناراً واحداً ، فانظروا كم يساوي مبلغ ثمانية عشر مليون دينار من نقود هذه الأيام[1] ؟

وجعلها مدورة لئلا يكون بعض أنحائها أقرب اليه من بعض ، وجعل فيها مجلسه وأقام عليه ايواناً عليه قبة خضراء ، علوها ثمانون ذراعاً ، وجعل من المجلس الى الأرض الفضاء نفقاً (سرداباً) طوله فرسخان ، وبقيت هذه القبة وهي (كما يقول الخطيب البغدادي) تاج بغداد ، وعلم البلد ، ترى من أطرافها جميعاً ، حتى هوت في ليلة عاصفة من سنة ٣٢٩ هـ أي بعد مائة وثمانين سنة .

ودار الفلك ، وظهرت صورة ثالثة لبغداد .

لقد بلغت بغداد من عمرها عشر سنين فقط ، ولكنها شبّت كما يشب الجني في قصة الف ليلة ، واستطـــاعت أن تقفز من فوق دجلة الى الضفة الأخرى ، فهل سمعتم ببنت عشر سنين تقفز نهراً عرضـــه خمسمئة ذراع ؟

لقد أقام المهدي الرصافة ، فصارت بغداد بلدين : الكرخ من هنا (من جهة الشام) وفيها مدينة أبي جعفر المدورة ، والقبة الخضراء . والرصافة من هناك .

وتكاملت بغداد ، واتصل الشاطئان ، وامتدت الدور ، وتناثرت القصور ، وسكرت بغداد بخمرة المجد والجاه والعلم والفن والغنى والسرور ، وجاء العصر الذهبي عصر الف ليلة وليلة ، عصر هارون الرشيد ، الذي قال للسحابة لما رآها : امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك ، والذي كانت

(١) اذا كان الخروف اليوم بأربعة دنانير ، فكل دينار يساوي اليوم ستة وسبعين ديناراً .

كلمته تمضي في الارض حتى تصل الى ابواب الصين ، وشواطيء الاطلنطي لا يردها شيء ، والذي ملك ما لم يملك قبله ملك قط ، وقام ليلة بصب الماء على يد العالم أبي معاوية الضرير بعد ان عشاه معه على مائدته ، فقال العالم الضرير : أتدري من يصب الماء على يديك ؟ قال : لا . قال الخليفة العظيم هارون الرشيد : أنا !

فهل ترونه اضطرب العالم أو اهتز ؟ لا والله ، وبقي يغسل يديه وهو يقول : إنما كرّمت العلم يا أمير المؤمنين .

هكذا كان ملوكنا يا سادة ، وهكذا كان العلماء .

* * *

لقد صارت بغداد أم المدن ، وحاضرة الحواضر ، وبلغت ما لم تبلغه روما في سلطانها ، ولا القسطنطينية ولا المدائن ذات الإيوان ، لقد غدت سيدة العالم والبلاد لها خول ، ما يظهر في بلدة طريف ولا ظريف من ثمرات الأيدي ، ولا من نتاج الطبيعة ، ولا من حصاد الأدمغة ، إلا حمل الى بغداد ، ولا ينبغ نابغ في مشرق من الأرض ولا مغرب إلا أمّ بغداد، فالقوافل أبداً تتجه الى بغداد بكل ثمين وجميل ، تحمله اليها لتلقيه بين يديها كما تحمل ماءها الأنهار من كل مكان لتصبه في البحر .

لقد تمت ، ولكن :

إذا تم أمر بدا نقصه ترقّب زوالاً إذا قيل تمّ

لقد أصابتها عين الحسود ...

لقد حلت النكبة ببغداد ، ونزلت ساحتها الحربُ بوجهها الكالح ، ومنجلها الذي يحصد الاخضر واليابس .

انهـــا الحرب الداخلية ، الحرب بين الولد المدلل المترف وأخيه الجاد العامل ، بين بغداد التي تميس كعروس جمع لها الشباب والجمال والحسب والمال ، وبين (مرو) التي وقفت بقدمي الرجل الصلد المتقشف ، بين الأمين والمأمون .

انها إحدى الثمرات المرة لهذه الغرسة التي غرسها في تاريخنا معاوية رحمه الله حين عهد بالخلافة لابنه يزيد ، وعلّم الخلفاء إيثار مصلحة الولد على مصالح الامة ؛ للنظام الملكي في الحكم .

ولكن الغادة الشابة القوية لا تموت من المرضة العارضة مهما اشتدت ، ولقد برئت بغداد ، وعادت الى أبهى مما كانت عليه وأزهى .

ومضى الفلم ، وبدت صورة لبغداد وهي على كرسي الولادة

لقد ولّدت بغداد ، وكان الطبيب المولّد ، هو الخليفة الذي كان آية في قوة جسمـــه ، ورجولته ، وآية في جهله وعاميّته ، والذي أدخل جراثيم المرض الفتاك في جسد هذه الدولة القوية ، المعتصم الذي جاء بغلمان الاتراك فجعلهم ســـادة الدّولة ، فجر علينا مصائب ثمانية قرون .

لقد ولدت بغداد يا سادة ، ولدت بنتاً ولكنها جاءت جنيّة بنت جنية ، أعجوبة ولدتها أعجوبة ، وهل أعجب من مولودة تخرج من يد القابلة وهي ترقص وتغني وتتكلم بسبع لغات ؟

ولم تكد تنتهي أفراح الولادة ، حتى كانت أيام المأتم

لقد ماتت الوليدة طفلة ، ماتت وهي في مثل عمر الفل ، ولكنهـــا تركت في تاريخ الامجاد عبقاً أطيب من أريج الفل ، تلك هي (سر من رأى)

(سامراء) التي لم تعش إلا ثمانياً وأربعين سنة فقط ، والتي بلغ سكانها مليونين ، على حين كان في بغداد أيضاً أكثر من مليونين ، ولن أحدثكم عن سامراء ، فافتحوا معجم البلدان تروا طرفاً من ماضيها ، وافتحوا كتابي « في بلاد العرب » تروا طرفاً من حاضرها ، واتلوا ما قال البحتري في بركة قصر المتوكل ، لقد رأيت آثار البركة من عشرين سنة ، وقست قطرها فكان أكثر من مئتي خطوة . لقد مشينا فيها خمسة وعشرين كيلاً بالسيارة وما قطعنا نصف المدينة من هنا ، فماذا تكون مساحتها وعلى الشط الآخر من هناك مثل ذلك ؟ لقد مررنا بشارع عرضه مئة ذراع ، سرنا فيه نحواً من ستة أكيال (كيلو مترات) ورأينا القصر الجعفري الذي قتل فيه المتوكل ، فاذا هو اكبر من مدينة سامرا الحاضرة ...

ماذا اقول لكم عن سر من رأى التي كانت أوسع رقعة من باريس اليوم ؟ عن عظمتها ؟ عن آثار مصنع الزجاج الملون العجيب فيها ؟ ومصنع القماش الذي أخرج من أقمشته ما يزري بما على أجساد حسان هوليود ؟

يا أيها القراء ، أستحلفكم بالله ، ان زرتم العراق أن تجوزوا بسامرا ، فليس في آثار المجد الاسلامي ما هو أروع منها ، ولا في قصص الآثار العربية ما هو أحلى وأشجى من قصتها ، اللهم إلا (تاج محل) في (اغرا) عند دهلي . ومن عرف الالمانية يجد حديثها كاملا في المجلدات التي وضعها عنها هرسفلد الالماني[1] .

* * *

(١) وهو الذي نقب عنها وكشف آثارها .

ومضى الفلم ، وبدت صورة بغداد ، وقد وصلت الى ذروة مجدهـــا وجلالها ، وحازت ما لم تحزه قبلها مدينة من المدن .

وهذا يوم واحد من أيام بغداد العظيمة ، ولست مستطيعاً أن أصور لكم كل ما كان في ذلك اليوم ، فهل رأيتم في السينما مشاهد تتويج الملكة في انكلترا ؟ إني اؤكد لكم القول ان حفلات التتويج تكون حادثاً صغيراً إذا قيست بحفلات استقبال وفد قيصر القسطنطينية في بغداد أيام المقتدر .

لقد وقف مئة وستون الف جندي ، بأكمل عدة وأفخر ثياب ، من خارج المدينة الى باب قصر التاج ، جنود من كل البلاد ، وكل الاجناس ، وأقيمت الاقواس والاعلام وسُلْسلت المصـــابيح ، ومدّت النمارق والسجادات والبسط العجيبة على طول الطريق ، فبلغ عددها اثنتين وعشرين الف قطعة سجاد ..

وخرج أهل بغداد جميعاً ، وقد زادوا عن ثلاثة ملايين ، الى الطرقات التي سيجتاز بها موكب الوفد ، فبلغت اجرة مجلس الرجل الواحد في الدكان أو على السطح عشرين درهماً ، أي أكثر من دينار .

ولبس قصر التاج حلة لا يمكن لقلم كاتب أن يصفها ، وحسبكم أن تعلموا ان عدد ما علق فيها من ستور الديباج المذهبة الطراز ، المصورة بابدع ما أخرجته أيدي النقاش والمصورين والمطرزين في أرجاء الارض كان ثمانية وثلاثين الف ستر .

ولا تحسبوا قصر التـــاج كما تعرفون من القصور ، لا ، ولا تظنوه كالحمراء في غرناطة ، ولا فرساي في باريز ، كان فيه ثلاثة وعشرون قصراً ، كل واحد منها أكبر (كما وصفوا) من قصر عابدين في مصر .

وكان في اصطبل الخيل في القصر الف فرس ، خمسمئة على اليمين ، عليها السرج المحلاة بالذهب والفضة ، وخمسمئة على اليسار بجلال الديباج والبراقع الطوال ، وكل فرس أمام بيته بيد سائس بأجمل بزة .

ومروا بالوفد على حَيْر الوحوش[1] المستأنسة ، وكان فيه مئة من السباع ، خمسون عن يمين وخمسون عن يسار ، وفيه دار الفيلة .

ثم مروا به على قصر الفردوس ، وكان فيه بهو طوله ثلاثمئة ذراع قد صفت فيه أنواع الاسلحة ، التي لم ير الراؤون مثلها .

ثم دخلوا به دار نصر الحاجب ، فلما رأى الوفد عظمة المكان ، وأبهة نصر حسبوه الخليفة فركعوا وسلموا ، فقيل لهم : كلا ، هـذا هو الحاجب .

ثم أدخلوهم على الوزير ابن الفرات ، وكان في مجلس في حديقة القصر بين دجلة والبستان ، قد علقت فيه الستور ، ومدت الفرش ، وكان شيء عجيب ، فحسبوه الخليفة فركعوا وسلموا ، فقيل لهم ، هذا هو الوزير .

ثم وصلوا الى الخليفة ، واستقبلهم في دار الشجرة ، وهي شجرة من الفضة وزنها ٥٠٠ الف مثقال وبعضها من الذهب والجوهر ، لها غصون وأوراق تميس ميسان أغصان الشجر ، وعليها أطيار من الفضة تصفر وتتحرك بحركات قد رتبت لها . وكان عدد خدم القصر المنبثين في الممرات والدهاليز وعلى السطوح ، بألبسة عجيبة وزينة بالغة ، سبعة آلاف خادم ، وكان الحجّاب أكثر من خمسمئة .

---

(١) حير الوحوش حديقة الحيوان ، واصل الحير البستان .

وكان يوم من أيام التاريخ .

★ ★ ★

ومضى الفلم ، وبدت صورة بغـــداد وقد وشحت بالسواد ولبست ثياب الحداد .

لقد ماتت بغداد بني العباس وكل حي الى ممات ، وذهب شبابها وما يدوم في الدنيا شباب ، وامحت محاسنها وخربتهـــا أيدي الوحوش البشرية من جند هولاكو ، جاءت بهم خيانة الوزير ابن العلقمي ، فذل الأعزة من أهلها ، وانتهك المصون من أعراضها ، وذبح علماؤهـــا وكبراؤها وأمراؤها ، واعمل السيف في أهلها أربعين يوماً ، فبلغ القتلى أكثر من الف الف ، وألقيت كتبها في دجلة فاسودت منه مياهها حيال الضفتين أياماً ، وذهب نتاج العقول ، وحصـــاد العبقريات ، وثمرات الأيدي الصناع ، وكانت مصيبة المصائب على الاسلام وأهله ، وغدت بغداد خرائب وأطلالاً .

لسائل الدمع عن بغداد أخبار	فما وقوفك والاحباب قد ساروا
يا زائرين الى الزوراء لاتفدوا	فما بذاك الحمى والدار ديّار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت	به المعالم قد عفّاه اقفـــار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر	والدموع على الآثار آثار

★ ★ ★

وتوالت المصائب على بغداد ، ولكن البطولة التي صبّها (محمد) في عروق هذه الأمة لم تمت ، وقامت مصر الاسلامية تقف في وجه المغول

وحدها بعدما اجتاحوا بغداد وعصفت رياحهم بكل قطر ، ينفخ في أرواحها الحماسة ، ويعدها النصر ، ويسوقها الى القتال شيخ من الشـــام هو العز بن عبد السلام[1] ، وانتصر الإســـلام على المغول في وقعة عين جالوت ، وانقذت مصر والشام ، كما أنقذت فلسطين من الصليبيين لما رمتها اوروبة كلها عن قوس واحـدة ، وكما ستنقذ من اسرائيل عندما يقيّض الله لها شيخـــاً كابن عبد السلام ، أو قائداً كصلاح الدين أو الظاهر بيبرس .

ونهضت بغداد من سقطتها ، ووقفت بغداد على قدميها .

وانقضى الفلم ، وصورة بغداد بمناراتها وقبابها ، ومعاهدها ومدارسها ، وامتدادها وعمرانها ، تملأ أبصار المشاهدين ، وتعيش أبداً في قلوبهم .

فسلام على بغداد ، على بغداد المنصور والرشيد ، على بغداد الأئمة والمحدثين ، على حاضرة الدنيا ومثابة الدين ، على بغداد الجديدة المتوثبة وملء أهابها العزم والإيمان ، على بغداد التي ستكتب قصتها مرة أخرى ، في صحائف القوة والعلم والمجد .

* * *

(١) انظر خبره في كتابي (رجال من التاريخ) .

من دمشق الى بغداد

كتبت سنة ١٩٣٦

لما جاوزنا (أبا الشامات)[1] وأصحرنا ، ونظرت بين يديّ وعن يميني وعن شمالي ، فلم أجد إلا الصحراء الصـــامتة الرهيبة الموحشة ، ووجدت دمشق التي أحببتها ولقيت فيها من يحبني ، وألفتها وتركت في كل بقعة منهـــا قطعة من حياتي وطائفة من ذكرياتي ، قد اختفت وراء الأفق ، وتضاءل (قاسِيُونها) وصغر حتى ما يبدو منه إلا خيال علويّ يلوح في السماء ، له وميض ولمعان ، أحسست بلوعة الفراق فخفق قلبي خفقاناً شديداً :

كأن القلب ليلة قيل يغدى   بليلى العامرية أو يُراح
قطاة غرهـــا شرك فباتت   تعالجه وقد علق الجناح

وخالطني حزن عميق وشعور مبهم ، أعرفه من نفسي كلما سافرت سفراً بعيداً (على كثرة ما أســـافر وابتعد) شعور من يجد الموت ويبصره بعينه !

ولم لا ؟ وهل الحياة إلا أن تقيم في المـكان الذي تألف ، وترى الناس الذين تحب ، وتصل ماضيك بحاضرك بصورة تراها ، أو نغمة تسمعها، أو بقعة تحلّها ؟

---

(١) في زيارتي الاولى لبغداد سنة ١٩٣٦ ، وابو الشـــامات آخر مخفر سوري على سيف الصحراء .

وهل يحيا المرء إلا في الأمكنة والوجوه ، وبالذكريات والآمال ؟

وهل الموت إلا أن ينبتر مما يحيط به ، وينقطع عن كل ما يعرف ، ويقدم على بلد مجهول ، وحياة غريبة عنه ، لا عهد له بها ، ولا نبأ عنده منها ؟

أوليس للانسان حياة ظاهرة في قيامه وقعوده ، وطعامه وشرابه ، وجيئته وذهابه ، وحياة باطنة في أفكاره وذكرياته ، وآماله وآلامه ، وميوله وعواطفه ؟

أو ليست حياته الباطنة هي الأصل وهي الأســـاس ، فلا يحيا إلا بها ولا يقوم إلا عليها ، كما أن الشجرة لا تحيا إلا بجذورها الممتدة في جوف الارض ، المختفية في بطن الثرى ، فإذا انقطع المرء عن عادته ، وابتعد عن أهله وصحابته ، لم ينفعه أنه لا يزال يقوم ويقعد ويأكل ويشرب ، كما أن الشجرة لا تنفعها أغصانها وفروعها ، إذا هي بتّت من أرضهـــا ، وقطعت من أصلها ، وفصلت عن جذرها .

وأحسب أن الله جلّ وعزّ ما قرن الموت بالإخراج من الديار ، وأجزل ثواب المهاجرين في سبيل الله ، التاركين أوطانهم ابتغاء مرضاة الله ، إلا لان الهجرة ضرب من ضروب الموت ولون من ألوانه ، فإن (تعددت الالوان فالموت واحد) !

وازدحمت في نفسي صور حياتي في دمشق ، وحبّبت إلي أضعـــاف ما كنت أحبها ، ومرت أمامي صور إخوتي وأهلي وإخواني ، وذكرت سهراتنا البيتية ، ومجالسنا الادبية ، وهذه الحفلات الوداعية الكثيرة التي تفضلت فأقامتها أسرة التعليم ، وجمعية التمدن الاسلامي ، والمدرسة التجارية

تكريماً لي قبل أن أعمل شيئاً أستحق عليه التكريم ، وافيض عليّ من النعوت ما ليس فيّ ولا أستحق الاقلّ منه .

وذكرت من دمشق كل حبيب إليّ جميل في عيني ، فازددت بها تعلقاً ، ووددت لو أني أبَيْت فلم أذهب ولم أتغرّب .

وكانت الصحراء قد امتدت من حولنا ، وأحدقت بنا ، وصرنا في قبضتها لا شأن لنا ولا خطر ، وآضت هـــذه السيارات الفخمة التي كانت تملأ الشارع بطوله وعرضه وكانت تعد وهي في دمشق شيئاً عظيما ، أهونَ على الصحراء من حبة رمل ! وضاعت في أرجائها فلم تعدْ تعدّ شيئاً .

وكان قد بلغ مني الحزن ، وحزّت في نفسي لوعة الفراق ، فأغمضت عيني ورجعت الى نفسي ، حتى إذا استروحت فتحتها وجعلت أحدّق في هذه البادية ، فأرى السيارة تعدو فيها وتسرع حتى نحسّ كأنها تطوي الارض طياً ، وأراها تلهث من التعب ، والبادية باقية على حالها ، كأننا لم نقطع منها شبراً ، وكأننا بعدُ في أماكننا .

ولست غريباً عن البوادي ، فقد عرفتها في رحلتنا (تلك)[1] الى مكة، وبقيت فيها عشرين يوماً ، ما من ســـاعة منها إلا وهي أشدّ من عشرة أسفار الى بغداد ، ولكن هذه البادية (بادية الشام) ، تختلف عن جزيرة العرب ، ففي الجزيرة مناظر متباينة ، وأراض مختلفة ، فيها الجبل وفيها السهل ، وفيها الوعر وفيها الرمل ، وما في هـــذه إلا شيء واحد لا يكاد يختلف أو يتغير ، أرض منبسطة ترابية قاحلة ، تمتد إلى الافق ، كأنها بحر ليس فيه ماء !

---

(١) اقرأ وصفها في كتابي (من نفحات الحرم) .

فكنا نقرأ ونتحدث لنقطع الصحراء بحديثنا ، فتقطع الصحراء بصمتها وجلالها حديثنا ، وكنا ننام ونفيق والصحراء هي هي ... حتى قطعنا يوماً كاملاً ، وكان صباح اليوم التالي ، وللصبـــاح في البادية جمال وروعة ، لا يكون مثلهما في المدن ، وبدّدت الشمس ظلمة الليل ، فتبدّدت من نفسي ظلمة الكآبة والحزن ، وانزاحت عني نوبة المرض ، وما العاطفة الرقيقة المونّثة إلا مرض في الرجال ، فصحوت ونظرت في أمري فإذا أنا لم أغترب ولم أفارق بلدي .

وهل بغداد إلا داري وبلدي وفيها أهلي وإخوتي ، إن لم تقرر هـــذه الاخوّة الانظمة ولم تسجّل في الدساتير ، فلقد قررها الله من فوق سبع سمواته وسجّلها في القرآن : « إنما المؤمنون إخوَة » . وليس ينقض ما أبرم الله .

وإن فرقت بيننا شارات على الارض ، وألوان على الصوّر ، فلقد جمع بيننا الدين[1] واللغة والعادات ، وألّف بيننا تاريخ الماضي ، وأمل المستقبل ، وألم الحاضر ، ووحّد بيننا الدم الذي جاء من نبعة واحدة . فأنّى ننكر هذه الاخوّة وشاهدها فينا ، ودمها في عروقنا ؟ وكيف أجهل بغداد ولها في نفسي مائة صورة ، وفي ذاكرتي عنها ما لا أحصي من الاخبار والتواريخ والاشعار .

وبغداد عاصمة الإسلام ، ومشرق شمس الحضارة ، وحاملة راية العصر الذهبي الاسلامي ، وأم الدنيا ، ومنزل المنصور والرشيد والمأمون ...

فدى لك يا بغداد كل قبيلة   من الارض (إلا) خطتي ودياريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها   وسيّرت رحلي بينها وركابيا

---

(١) وكفى به جامعاً بيننا .

فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً	ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرقّ شمائلا	وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا

وكنت أرانا نخاف هذه البادية ونحن على طريق مسلوكة في سيارة متينة ، ونمل من طولها ، ونحن نقطع منها ثمانين أو تسعين كيلا في الساعة ، ونشكو ومعنا اللحم والفاكهة والماء المثلج ، ونتعب ونحن مضطجعون على المقاعد الوثيرة ، ثم إذا وصلنا الى الفندق غدنا أربع عشرة ساعة ، لنستريح ونسترد الروح ، فأفكر في أجدادنا أيّ ناس كانوا ؟

وكيف قطعوا هذه البادية وهم على ظهور الإبل ، يخوضون لجة الرمل الملتهب ، يلتحفون أشعة الشمس المحرقة ، يتبلّغون من الطعام بتمرة ، ويكتفون من الماء بجرعة ، ثم إذا وصلوا قابلوا جيوشاً أوفر عَدداً وعُدداً فحاربوها وانتصروا عليها ، وفتحوا بلادها ، فأقول : هذا هو فرق ما بيننا وبين أجدادنا .

هذا هو الفرق بين الشاب منهم تصيبه ضربة في المعركة ، فتقطع يده من كتفه وتلبث متعلقة به ، فتؤذيه وتعيقه عن القتال ، فيعمد إلى أصابع يده المقطوعة ، فيدوس عليها بقدمه ، ثم يتمطى حتى يبترها ، ثم يلقيها ويعود الى جهاده ، والشاب منا يزاحم المرأة على كل شيء هو لها ، فيخطر في الشارع كالعروس في ليلة الزفاف ، وإذا شاكته شوكة ، أو لفحته الشمس ، أوى الى الفراش !

ولما كان ضحى الغد بدا لنا نخيل العراق ، وأشرفنا منه على مثل الليل ، فعرفت لماذا سمى العرب السواد سواداً ، وذهبت أتذكر الفتوح (وعهدي بمطالعتها قريب[1]) فأحس بأني أسمو عن زماني وأعيش في أيام الصدر

(١) كنت اشتغل قبل سفري بتأليف كتابي عن ابي بكر الصديق .

الاول وأقدر بعد نظر المستعمرين وصحة رأيهم في تعطيلهم التاريخ الإسلامي في مدارسنا ، وتنشئة أبنائنا على الجهل به والبعد عنه ، لما لهذا التاريخ من العمل السحري على بثّ روح الشرف والنبل والقوة والعزة والفضيلة في نفوس شباب العرب ، ولانه شمس إذا طلعت كسفت هـــذه الانوار الكهربائية ، التي أضاء بها الغربيون أرجاء تاريخهم ، فبدت تواريخهم بعد ذلك سوداء مظلمة ... وبدا وحده المشرق المنير .

وجعلت أتشوق إلى بغداد ، واعرض في ذاكرتي صوراً منها ، وأنتظر أن أرى مدينة المنصور ، بأسوارها المستديرة وابوابها الفخمة ، وألمح قبّتها الخضراء العالية المشمخرة ، الذاهبة في السماء ثمانين ذراعاً طالعة علينا من عرض الفلاة ، تضطرب صورتها في دجلة[١] ، وملأ نفسي الشعور بعظمة بغداد ، المدينة التي كانت وحدها دنيا ، (كان فيها ستون الف حمّام ، فلو أن في كل حمام خمسة نفر : حمامي وقيم وزبّال ووقاد وسقاء ، وذلك أقل ما يكون ، لكان أصحاب الحمامات ثلثمائة الف رجل ، وكان حيال كل حمام خمسة مساجد ، فلو أن في كل مسجد خمسة أشخاص لكان ذلك الف الف وخمسمائة الف إنسان . وأحصيت الزوارق التي في دجلة فكانت ثلاثين ألفاً)[٢] .

قال الخطيب : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير ، في جلالة قدرها ، وفخامة أمرها ، وكثرة علمائها وأعلامها ، وتميز خواصها وعوامها ، وعظم أقطارها ، وسعة أطرارها ، وكثرة دورها ومنازلها ، ودروبها وشعوبها ، ومحالّها وأسواقها ، وطيب هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرد

(١) سقطت هذه القبة وتهدمت من قديم .

(٢) كذا قال المؤرخون . والمبالغة في ذلك كله ظـــاهرة .

ظلالها وأفيائهـــا ، واعتدال صيفها وشتائها ، وصحة ربيعها وخريفها ، وزيادة سكانها » .

• • •

وبعد فهأنذا على (جسر بغداد) في نشوة من خمرة الذكرى . أذكر ما لا سبيل لي الى تلخيصه ، وأحس ما لا طاقة لي على وصفه ، وقد قال أبو الوليد ، قال لي شعبة : أرأيت جسر بغداد ؟

قلت : لا .

قال : فكأنك لم تر الدنيا .

أما أنا فرأيت جسر بغداد ، ورأيت الدنيا . لا أقول إنه أعظم من جسر اسماعيل ، أو أجمل من جسر الزمالك ، ولكن لجسر بغداد سراً آخر ، يعرفه كل من نظر في كتب الأدب والتاريخ ، وقرأ عن جسر بغداد . هـــذا الذي جازه القواد الفاتحون ، والفقهاء والمحدثون ، والشعراء والماجنون .

هذا الذي وقف عليه الرشيد والمأمون ، وأبو حنيفة والشـــافعي والفضل بن دينـــار ، ومطيع وأبو نواس ، وعبد الله بن طاهر ، ويزيد ابن مزيد .

وشهد جلال الخلافة ، وعظمة العلم ، وروعة الزهد ، وضحك المجون ، وقوة الجيش .

وجرى عليه نهر التاريخ .

وتداعت على جوانبه القرون .

هذا الذي كان سرة الأرض !

• • •

أيا حبّذا جسر على متن دجلة بإتقان تأسيس وحسن ورونق
جمال وفخر للعراق ونزهـــة وسلوة من أضناه فرط التشوق
تراه إذا ما جئته متـــأملًا كسطر عبير خط في وسط مهرق[1]
أو العاج فيه الآبنوس مرقش مثال فيول تحتها أرض زئبق

أما إنني إن أحببت مصر لأن منها أصلي ، وأحببت الشام لأن فيها مولدي ، وأحببت الحجاز لأن اليها قبلتي ، فإني أحب العراق لأن فيها أجمل ذِكَر الماضي ، وأحب كل بلد يقول أهله :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله . » لأنه بلدي ، وأهله أهلي .

• • •

(١) المهرق : الصحيفة .

سُرَّ من رأى

كتبت سنة ١٩٣٧

الآن رجعت من التاريخ . إني أرى الدنيا صغيرة خالية ، لأني كنت في دنيا أكبر منهـــا ، وأحفل بالنور والعطر ، كنت في (سر من رأى) .

* * *

جلست أدون رحلتي الى الحِلّة (دمشق العراق) ، ووقوفي على انقاض بابل (أخت الدهر) ، وزيارتي السدة الهندية (القناطر الخيرية الثانية) ، وما أولاني الحلّيون من ألوان المنن وأنواع الكرم ، فلم أكد أمضي في المقالة حتى عرضت لي رحلة جديدة الى (سر من رأى) .

ومن ذا الذي لا تفتنه سرّ من رأى ولا تهيج بلابل أشواقه ؟

ومن ذا الذي نظر في كتب التاريخ ، أو شدا شيئاً من الأدب ، ثم لا يعرفها ولا يحسُّ أن لها صلة بنفسه ؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات ، بصوت خافت ، كأنه مناجاة النفس ، بطيء ، كأنه هجس الضمير ، وأنتم تنظرون بعيونكم الى بعيد ، تحدقون في غير شيء ، فعل من يتذكر أمراً ، ثم انظروا كم يثير في نفوسكم من ذِكر وحوادث ، وفِكَر وعواطف ، أقل ما توصف به أنها لا توصف .

وكيف تحتويها كلمات وهي عالم ، وكيف تنتظمها لغة الارض وهي من لغة السماء ؟

ومتى كان الإنسان ناطقاً مبينا ؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة لكائنات عظيمة ، إن العواطف مئات ومئات وما ثَمَّ إلا كلمة واحدة تسمى بها، وكذلك الجمال والحب والطبيعة . لا ، ان الانسان لا يزال طفلاً لم يتعلم النطق ، ولم يحسن البيان .

. . .

سرّ من رأى . وما سرّ من رأى ؟

هي التي نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الارض ، ولما بلغت غاية المجد ، وأبعد الأماني ، وبذت كل مدينة ، وكان فيها مليونات من السكان ، وكان فيها العلم والفن والسلطان .

نهضت لها تزاحمها وتنافسها ، فلم تكن إلا ليالٍ حتى غلبتهـــا وبهرتها ، وتربعت على دجلة من فوقها ، وسلبتها خليفتها وأبهتها ، وجلة أبنائها ، وكانت أجل منها وأعظم .

سرّ من رأى ، المدينة الملوكية[1] التي ولدت فجـــأة فإذا هي أجل المدن ، وإذا في كل ناحية منها عرس ، وفي كل بقعة منها عرش ، وإذا هي تتشح بالنور ، وتتضمخ بالعطر ، وتنام على الزهر ، واذا هي تبلغ ما لم تبلغه من بعدُ الزهراء المدهشة ولا فرساي .

ثم ماتت فجأة فاذا كل ذلك حلم مريع ، وبرق خاطف ، لم تعش

---

(١) النسبة صحيحة مستعملة من القديم وان كان القياس (ملكية) . ومثلها في النسبة الى الجمع : رجل انصاري ورسالة اخوانية ومسألة اصولية .

إلا خمسين سنة (٨٣٨ - ٨٨٣ م) وما خمسون سنة في عمر المدن إلا خمسون دقيقة ؟

أفرأيت الجميلة التي ولدت بأعجوبة فاذا هي الغادة الفتانة ، ثم إذا هي تقضي بعد ساعة ؟

لم تكد تزدهر وتستقر حتى نودي فيها بالرحيل ، والرجوع الى بغداد، فهبّ الناس مذعورين ، يحملون ما خفّ حمله ، وغلا ثمنه ، وتركوا المدينة العظيمة للرياح ، والوحوش ، واللصوص .

قرأتُ ذلك من حديثها ، ثم لم أعد أعرف عنها شيئاً ، ولم أدر ما صنع الدهر بها ؟

وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها ؟

ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها ، والبصرة ومربدها، أو يعلم صفة القادسية واليرموك ؟

من يسأل عنها ، وهذا مسجد بغداد العظيم ، مسجدها الجامع ، قد ابتلعته الدور ، وطغت عليه فلم يبق منه إلا منـــارته تنادي لو وجدت سميعاً .

وما كان ذنب هذا المسجد ، وما كان ذنب هذه الآثار ، إلا أننا نحن وارثوهـا لا الفرنسيس ولا الانكليز ، أولئك الذين لم يدعوا في بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعـــة ، أو أثر من آثار الماضي ، إلا كتب عنـــه مؤرخوهم ، ووصفه أدباؤهم ، وصوره مصوّروهم ، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة ، وهدمناهـــا بأيدينا لنبني بأنقاضها دورنا الحقيرة .

أسمعتم بالمدرسة النظامية التي درّس فيها حجة الاسلام الغزالي ، وإمام

الحرمين الجويني ، والتي كانت من اكبر جامعات القرون الوسطى ؟

أتدرون ماذا بقي منها ؟

منارة مهدمة طولها أربعة أمتار ، في زقاق عرضه ثلاثة أمتار ، عند جامع مرجان في بغداد .

والمنارة مائلة قد انحنت تحت اثقال دار قد ركبتها ، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار ، فمن يدري ؟

وأين من يدرس الآثار ويعنى بها ، وهذا قصر الخضراء في دمشق لم يبق منه إلا اسمه ، تحمله مصبغة في زقاق القباقيب ، يا لعجائب الزمان ، صار مثوى التاج ، ومحط العرش ، زقاق القباقيب ! فمن سأل عنه ومن وصفه ومن حفر في انقاضه ؟

أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا ... إذن لحرثت هذه البقاع حرثاً ، ثم أخرجت كنوزها ، ثم ملأت نفوس اهلها عزّة ، ثم كانت لهم اجنحة يطيرون بها في معارج العلاء .

إن تحت هذه الأرض علماً ومجداً وجلالاً ، ولكن ليس فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال !

أوليس من أعجب العجب يا قومي ، ان آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها إلا هؤلاء الاوربيون ؟ إن في جوار دمشق قريتين هما (معلولا وجَبَعْدين) تتكلمان السريانية منذ خلقتا[1] ، فما فكر احد في درس هذه اللغة ومعرفتها ، حتى جاء هذا المستشرق الشاب من آخر الدنيا ، ليدرسها .

بل هـذه هي سر من رأى مانقب فيها وكشفها للناس الا هَرْسْفِلْد الالماني الذي حفر فيها سنة ١٩١١ كلها وبعض سنة ١٩١٣ باشارة من استاذه

---

(١) ليس على وجه الارض اليوم من يتكلم بالسريانية غيرهما .

سار وبنفقة المصرف الالماني وبعض كبار الالمان . بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل الى الجوسق والى القصر المعشوق[1] واستخرج من هـــذه البقعة الصغيرة ، كرائم الآثار ، ونفائس الأعلاق التي انتقلت الى المانيا ، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي اخرجه هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مدهشة حقاً . وهو يصف في المجلد الاول نقوش الجدران وزخارفها ، ويقول انها لم تكن تخلو دار من هذه النقوش الجصّية البارزة الملونة احيـــاناً ، وفي الثالث الرسوم والصور . واكثر هذه الصور مما وجد في حمام الجوسق ، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذي كشف سنة ١٩٠٨

ويتحدث في جزء عن الاواني الزجاجية والخزفية ، وقد بيّن انه كان في سُرّ من رأى معمل للزجاج ، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته .

ومن أهم ما تمتاز به المدينة شوارعها ، التي لا تـكاد تحوي مثلها (اليوم) مدينة في العالم ، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظـــام عجيب ، والشارع الاعظم ، (وآثاره باقية) يمتد عدة أميال بعرض مائة ذراع ، ودورها التي كان اكثرهـــا كبيراً فيه خمسون غرفة ، وفيه مجارٍ للماء وبرك ، ومجارٍ اخرى للماء القذر ، وحمامات وسراديب للصيف ، مبنية

---

(١) قصر عظيم باقية آثاره وهو مقابل قصر المتوكل على الضفة الثانية لم يعرف احد تاريخه والعامة تسميه قصر العاشق والمعشوق ، وبينه وبين قصر المتوكل آثار سد هائل في دجلة ، وقد بحثت وحققت فوجدت ان تلك الانقاض لقصر المعشوق الذي بناه المعتمد على الله،قالوا : وكان في الجانب الغربي قبالة سامراء .

على نظام يكفل لها حسن التهوية ، وكان اكثر الدور على طراز واحد ، فهي ذات ردهتين : ردهة حيال الباب تفضي الى ردهة أخرى مستطيلة عمودية عليها ، والغرف من حولها .

وقد صحب هرسفلد رجل عسكري يدعى (لودلوف) متخصص برسم المصورات ، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة $\frac{١}{٢٥٠٠٠}$ وصحبه رجلان مختصان بالنقوش هما (بارتوس وبيجر) ، على ان ما كشفه هرسفلد لايعد شيئاً ، والمتحف العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار ، وجمعهـــا في متحف الآثار العربية ، وينتظر ظهور أشياء هائلة .

• • •

سرنا الى (سر من رأى) في قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين العـــالية في بغداد) ، فجزنا بالاعظمية وعبرنا النهر الى الكاظمية ثم استقبلنا الفضاء .

ولم نقف في الطريق إلا على (جسر حَرْبي) ، وهو جسر قائم وحده في الفلاة ، ذو ثلاث قناطر ، عليه كتابة ظـــاهرة تدل على أنه بني في أواخر العهد العباسي ، على (نهر دجيل) ليسقي مدينة حربى . فتلفتنا فإذا النهر قد جفّ ، والمدينة قد محيت ، والعهد العباسي قد انقضى ، وإذا كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة ، وبلادنا تتأخر وتمعن في الخراب ، فوقفنا معتبرين ، ومضينا مستعبرين .

ولم نسر من بعدُ إلا قليلًا حتى طلعت علينـــا (المَلْويّة) وهي منارة جامع المتوكل ، عالية تبدو من بعيد كالصرح الماثل ، وقد شبهت مكانها

من سر من رأى (ببرج إفتل) من باريز ، فهي علم البلد ورمزه ، ثم بلغنا دجلة فعبرناه ، ودخلنا (قرية) سامراء نستريح في مدرستهـــا ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات في السيارة ، ثم ولجنا حرم التاريخ، يصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم ، وأرونا من كرمهم ، وحسن أخلاقهم ، ما نذكره لهم بالشكر ، فلولاهم ما رأينا شيئاً ، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج ، في هذا العالم الواسع !

إي والله هو عالَم ، هو شيء عظيم .

سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلا[1] ، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع الى الدور العليا ، وإن الى الدور السفلى لمثلها ، وان هذا كله لنصف المدينة ، وعلى الضفة الأخرى مثله .

أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هـــذه البرية الواسعة التي يضل فيها البصر ، مدينة عامرة ، وكيف كان الناس يقطعونها ، وإن بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتي عشرة ساعة على الراكب .

كان أول ما رأينا المسجد الجامع ، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنهـــا ، لم يبق منه إلا السور وهو مبني من اللبن ، مثل سائر الأبنية العراقية ، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة ، ووراء السور المنارة ، وتعرف عند الناس بالملوية أي المستديرة ، وهي حلزونية الشكل سلمها من ظاهرها ، مؤلفة من سبع طبقات ، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها ، طول الضلع من اضلاعها (٤٠) متراً ، وارتفاع المنارة قريباً من (٨٥) مترا ، وقد بنيت على غرارها منارة

---

(١) بالضبط .

جامع ابن طولون في القاهرة[1] ، ثم تركت هذه الصفة في المآذن ، واتخذ لها سلم من جوفها .

● ● ●

تركنا المسجد وسرنا في جهة واحـــدة ، كيلا نضل وسط هذه الأطلال ، وكان حولنا تلال من التراب ، كانت قبل الف ومئة سنة دوراً عامرة ، وقصوراً فخمة ، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير ، أخبرنا معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواثق .

وعلا بنا على تلّ عال وقال: انظروا

فنظرت فلم أر إلا برية واسعة ، لا شيء فيها .

فقال : أمعن النظر وحدق في الأرض . ففعلت فرأيت شيئاً أدهشني ، وخفق له قلبي .

رأيت تلالاً صغيرة منتظمة ، على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسي بديع ، تمتد الى ما لا يدرك البصر آخره .

فقلت وأنا مشدوه : ويحك ما هذا ؟

قال : ميدان سباق تجري فيه الخيل الى اكثر من خمسة آلاف متر ، فلا تغيب عن عيني الخليفة وهو يرقبها من مرقبه العالي .

● ● ●

---

(١) وهي باقية ، في موضع مدينة القطـــائع التي بناها ابن طولون (حي السيدة زينب اليوم) .

ومضينا . . . نمرّ على الأطلال ، حتى بلغنا آثار سور كأنه سور مدينة .

فقال دليلنا : هذا بلاط الخليفة .

فترجلنا وسرنا في طريق مبلط باقية آثاره ، ونحن نتخيل كم مرّ في هذه الطرق من خلفاء وأمراء ، وكم شهدت من جلال وجمال ، حتى بلغنا مصيف المتوكل ، وهو أول ما استقبلنا من القصور ، ونسيت أن أقول أن البلاط بلدة واسعة ، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها ، وفيها المسجد الكبير ، وفيها البركة المتوكلية المشهورة (بركةالبحتري) .

فولجنا المصيف ، وهو قصر كبير تحت الأرض ، فيه غرف كثيرة يفضي بعضها الى بعض ، وفي ساحته بركة .

وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الارض ، فلما هبطنا الى جوف القصر كدنا نشكو البرد .

وكان زميلنا استاذ التاريخ يقص على الطلاب قصة القصر وبنائه وفنه وقيمته التاريخية ، ولكن واحداً منا لم يكن يصغي أو يفهم شيئاً مما يقول ، فكفّ وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحيّة ، لا للعقل ومقاييسه الجادة ، وفلسفته الباردة .

كنا نتخيل هذا القصر ، وقد كان يعجّ بالحياة ، ويفيض بالحب .

كنا نسمع الاصوات ، ونبصر الألوان ، ونشم عبق العطر ، ونحس كأنا نرى الخليفة ، ونشهد مجالس الادب والغناء ، وخلوات الحب .

كم عاش في هذا المكان من عواطف !

كم خفقت فيه من قلوب !

كم امتلأ بالحياة !

أفيودي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة ، ويشمله العدم ولا يبقى له وجود قط ؟

أي امرىء عرف الحب ، وكابده وأدرك معناه ، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه ؟

لا . إن ذلك كله موجود !

موجود في زاوية من زوايا هـــذا الكون الفسيح ، إنه خالد لا يفنى أبداً .

إن في هذا القصر ذكريات جمة ، تحتويها هذه الجدران الخرساء وهذا اللبن البارد ، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه ، إن فيه خفقات تلك القلوب ، إن فيه رنات تلك القبل .

إن سؤال الديار ، واستخبار الاطلال ، أقدم فنون الشعر العربي، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين ؟ أتراهم كانوا عابثين ؟

لا ، ان في هـــذه الاطلال لحياةً ... ان كل شيء في الوجود حيّ يذكرُ ويأمُل ويشعر ويحلم ، ولكنه لا ينطق ولا يفكر .

آه . . . لو أن هذه الجدران كانت تنطق ، وتتحدث وتصف ما تشعر به ؟ !

وخرجنا من القصر ، ونحن نحس كأنا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا الى عالم آخر ، عالم تمتزج فيه الأحلام بالحقيقة ، عالم شعري ســـاحر ... فمررنا على جب واسع الماء خبرنا دليلنا ان بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن ويختلقون عنه الاكاذيب . وهؤلاء الادلاء والتراجمة

بلاء أزرق ، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الافرنج تاريخ الجامع الاموي في دمشق ، فقال لهم ما نصه : « هـــذه هي المنارة التي بناها الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى[1] » ولذلك سميت منارة عيسى » وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول ، فينشرونه على أنه كتاب علمي عن الشرق وأهله ، وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التي كتبت كتابا عن دمشق قالت فيه : « ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي في مكة القريبة ويرجعون لينامو ا في دورهم » ! وما قبر النبي في مكة ، ولا مكة في دمشق ، ولا يخرج أهل دمشق ولا يدخلون ، ولكن الحماقة ألوان ، والجنون فنون !

أقول : اننا سرنا الى مسجد القصر ، وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ، ومحراباً جميلا حملها الى المانيا ، ثم انتهينا الى البركة ، ولست أكتم القراء أني كنت أظن أن البحتري يبالغ في وصفهـــا على طريقة الشعراء الخياليين ، وأقرر ذلك في دروسي الادبية ، وأقول :

ما عسى أن تبلغ هذه البركة حتى تظل دجلة كالغيرى منها تنافسها وتباهيها ، وحتى تبدو في الليل كأن سماء ركّبت فيهـــا ، وحتى أن السمك المحصور لا يبلغ غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها ؟

فلما رأيت أنقاضها رأيت شيئـــاً عظيما ، رأيت بحراً ، رأيت ميدان سباق .

دائرة قطرها نحو مائتي متر ، فأكبرتها وهي جافة ، فكيف لو

---

(١) لذلك الفت كتـــابي (الجامع الاموي) الذي طبعته وزارة الاوقاف وستوزعه مجانا .

رأيتها وهي ممتلئة بالماء ، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة وقد عقد فيها مجلس الخليفة ؟

اذن لرأيت أكثر مما قال البحتري ، فرحم الله الشـــاعر وألهم شعراءنا تخليد ما يرون من جمال بلادهم ، وعظمة مصانعهم ، على نحو ما خلد البحتري البركة والجعفري وطاق كسرى !

ثم سرنا الى قصر الخليفة الرسمي ، ووقفنا في ايوانه الكبير ، وهو مبني على شكل ايوان كسرى ، ولكنه اجمل وأصغر ، وقفنا صامتين خاشعين تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يُدرى مداها ، نتخيل هذا الايوان ، وكم عقد فيه من مجالس ، وكم وقف فيه من ملوك ، وكم كتب فيه من تاريخ نبصر المعتصم وقد أخذ كأساً ليشربها فأبلغوه ان امرأة مسلمة أسيرة في بلاد الروم صاحت : وامعتصماه !

امرأة اسيرة ، وامير المؤمنين يشرب كأسه هانئاً ؟

امرأة تنادي : وامعتصماه ، والمعتصم لا يجيب ؟

إن هذا لن يكون !

وأرى المعتصم يخرج في الجيش اللجب ، الذي تضطرب له سرّ من رأى ، وتميد لثقله الارض ، وتصعق لهوله المرَدَة ، وترتجف الرواسي ، حتى يحط على عمورية ، فيدكها دكا ويعود مثقلاً بالمجد والظفر والغنائم .

واسمع أبا تمام ينشد آيته الخالدة التي لم يقل أعظم منها المتنبي[1] :

السيف أصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

(١) ابو تمام لا المتنبي هو الاستاذ الاكبر في الشعر العربي .

فتح الفتوح تعـــالى أن يحيط به نظم من الشعر او نثر من الخطب
يا يوم وقعـــة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاســـلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

ثم انظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل :

تغير حسن (الجعفري) وأنسه وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ســـاكنوه فجاءة فعادت سواء دوره ومقـــابره
اذا نحن زرناه اجد لنا الاسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
(غدا موحشاً قفراً) كأن لم يقم به أنيـس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيـــه الخلافة طلقة بشـــاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءهـــا وبهجتها والعيـش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتهـــا ابوابه ومقـــاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره(١)

لقد هجرته الحياة ونأى عنه النعيم ، وجفاه كل صديق ، حتى دجلة .

دجلة اعرضت عن القصر ، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه ، وجفته وكانت مع الدهر الدوار ، والزمان الغدار .

حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد ، ووضعوا فيها الحياة ، وأعطوهـــا أكثر مما أخذوا منها ، حتى دجلة التي جرت ملايين السنين ، فلم تجد أكرم ولا أعز ولا اعظم ، من اصحاب هذا القصر وبناته ...

حتى دجلة نسيت وخانت(٢) ! !

• • •

(١) من قصيدة البحتري وهو صاحب اجمل اسلوب في الشعر العربي .
(٢) غير النهر مجراه وابتعد عن القصر مسافة كبيرة وقد كان يمر امامه .

ثم ودعنا البلاط وسرنا ، وقد اودعناه قلوبنا، وصببنا فيه نفوسنا ودموعنا. سرنا في الشارع الاعظم نصف ساعة في السيارة ، والشارع بيّن لاحب ، عرضه مائة ذراع ، والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب ، وهندسة محكمة والبيوت قائمة على الجانبين ، وقد استحـــال أثرها الى تلال من التراب كأنها القبور ...

فمررنا على معسكر أشناس ، وهو اشبه بميدان فسيح جداً حوله سور، حتى انتهينا الى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دُلف ، وهو اكبر من مسجد المتوكل ، وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنـــارة كالملوية ولكنها اصغر منها ، فوقفنا عليه . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، فانتهت الرحلة هنا ، وعدنا ونحن صامتون خاشعون . . وقد علمنا لماذا يريدون منا ان نتجرد من ماضينا ، ذلك لاننا لا نستطيع ان نبني المستقبل الفخم ، إلا على أنقاض الماضي الفخم .

● ● ●

على ايوان كسرى

كتبت سنة ١٩٣٧

خرجنا من بغداد ، فسلكنا على « حيّ البتاويين » ظاهر « الباب الشرقي » ، وجزنا على قصوره الشم ، التي تتكىء فيها الارستقراطية الناعمة على الأرائك ، سكرى بخمرة الذهب ، وسرنا الى « المنيدي » في الطريق التي تنام على بسط الحقول السندسية ، يحرسها صفان من النخيل ، حتى انتهينا الى « المعسكر البريطاني »[1] صرح أكاسرة اليوم ، فتركناه وأممنا صرح أكاسرة الامس ، لنقف عليه ذاكرين معتبرين .

عبرنا نهر « ديالي » وخلفنا القرية جاثمة على كتف النهر ، قد دلت رجليها في مائه ، واستقبلنا الفلاة الواسعة ، فما عدنا نرى إلا الفضاء ، حتى إذا سرنا فيها ســاعتين ، طلعت علينا قرية « سلمان » ، تلوح على حاشية الافق ، تضيـح وتغيب ، ثم تبيناها ورأينا قبة مسجدها واضحة ، ورأينا بجانبها بناء ضخما كأنه جبل ، فقلت : ما هذا ؟

قال صحبي : هذه قبة سلمان الفارسي ، وهذا إيوان كسرى .

---

(١) كان كذلك يوم كتب هذا الفصل ، فصار الآن (معسكر الرشيد) ترفرف عليه الراية العراقية العربية ، فالحمد لله .

فقلت : يا للعجب ! أطاف سلمان ما طاف حتى استقر قبره بجانب الإيوان ، فغدَوا متلاصقَين ، وبَدوا متعانقَين ؟

وحَثَثْنا « الدرّاجات » الى القرية ، فبلغناها بعد ساعة.

كانت قرية صغيرة ، نشأت على قبر سلمان رضي الله عنه ، ليس فيهـا (إلا مسجده) شيء يذكر ، أما الايوان فهو في ظاهر البلد ، متربع على ظهر الفلاة وحيد معتزل ، مطرق حزين !

• • •

وقفنا عليه فإذا هو (طاق) عال متهدم ، وجدار شـامخ متصدع ، وإذا هو ضخم فخم ، ولكنه عار موحش ، ليـس فيه صورة ولا نقش .

لا صورة انطاكية التي تروع بين روم وفرس ، ولا أنوشروان يزجي الصفوف تحت الدّرفس ، ولا عراك الرجـال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس ، من مشيـح يهوي بعامل ربح ، ومليـح من السنان بترس[1]...

لقد محا الدهر الصورة ، كما محا أهلها ، ودار الزمان دورة أخرى ، فأصبـح حاضر البحتري ماضياً ، وعيانه أثراً .. ذلك لأن الماضي نقطـة واحدة ، تتلاقى فيها الأبعاد ، وتضيع المسافات ، وتفنى الدهور.

نقرأ قصيدة البحتري ، ونرى الايوان ، فنحس أنهما قد التقيا في عالم الماضي ، وضاع ما كان بينهما من عصور ، كما التقت آثار « سر من

---

(١) من قصيدة البحتري .

رأى ، بأطلال بابل ، فكان حكمهما في الخيال واحداً ، وأثرهما في النفس واحداً ، وكما التقت في أبصـــارنا ونحن قادمون على القرية قبة سلمان بالايوان .

ومن لعمري يدرك الزمن الذي كان بين آدم ونوح ، وابراهيم وموسى ، وبلقيس والزباء ، وهوميروس وأفلاطون ، وحروب طروادة وفتوح الاسكندر ؟ إن الحوادث كلها أمعنت في المضيّ ، ضاعت من بينها الأزمنة وامحت الابعاد .

* * *

وليس يهيج النفس ويثيرها مثل أطلال الماضي ، والوقوف بآثار الغابرين ، ففيها روعة البقاء ، وهول الفناء ، وعبرة الدهر .

وهي نوافذ تطل منهـــا النفس على عالم المجهول الذي تحن اليه أبداً ولا تني تقرع بابه ، فتتحرر فيها ساعة من قيود المادة ، وتطير في مسارب الأحلام .

ولقد وقفت على الاهرام ، ومررت على الحديبية ، وجلست في العقيق ، وعرجت على حطّين ، وزرت بعلبك ، فكان شعوري في ذلك كله كشعوري اليوم وأنا في المدائن ، أمام إيوان كسرى ، أستعظم الأثر ، واعجب بجلاله ، وأكبر القدرة التي أنشأته ، ثم أعود بفكري الى الماضي ، فأحس بأن صفحته تفتح أمامي ، فأرى حقيقةً مشاهدةً ، كلّ ما قد قرأت في الكتب ، وأتخيل أني مع الغابرين أسمع وأرى ، فأراني قد عشت دهوراً ، ثم أقابل وأعتبر ، ثم أذهل عن نفسي ، وأجول بفكري وخيالي في آفاق كثيرة لم أرها من قبل .

في الآثار الباقية ، والامم الماضية ، يلتقي أعظم شيئين وأجلهما : الزمان والمكان ، فتلمس القرون تنحــــدر على صخر الهرم ، أو أعمدة بعلبك ، أو آجر الايوان .

هذا الآجر الذي حمل أعباء القرون السبعة عشر ، يا لروعته وجلاله !

إني لأحتقر نفسي وأنا قائم بقامتي القصيرة الهزيلة ، حيال هـــذا الكائن الجبار الهائل ، ثم أعود فأرى كل شيء دوني حقيراً ، أنا الحيّ ، وأنا الباني ، وما هذه كلها إلا أثر من آثاري ، ليس لها لولا فكري وجود ، ولا لوجودها معنى ، ثم أراني أحقر منها واصغر ، بجنب الله الباقي ، وأرى هذا الفكر وما أنتج ، مخلوقاً من أصغر مخلوقاته ، لا إله إلا هو .

وأطفت بالديوان ، ووقفت على بابه ، ثم دخلت اليه من الصحراء فإذا ... فإذا أنا قد خرجت الى الصحراء .

الصحراء الصـــامتة صمت الموت ، الموحشة وحشة المقبرة ، الممتدة امتداد الزمان .

وقفت أستنشق عبير المجد ، وأتسمع نشيد العظمة ، فما سمعت إلا صفير الرياح ، ولا نشقت إلا رطوبة الفناء .

لمست الايوان فما أحسست إلا برودة الحجر ، تسلقت الجدار حتى كلّت رجلاي ، ولم أبلغ نصفه ، فجلست على لبنة بارزة لاستريح ، وتلفتّ ، فاذا الافق الواسع الرحيب ، واذا الناس كالنمل ، واذا القرية كأنها كومة من الحجارة ، مكوّمة في أعماق الوادي ، واذا دجلة تجري بعيداً تلبس حلّة من نور الشمس فتبدو لامعة تزيغ منها الابصار ، وإذا أنا وحدي ، معلق بين السماء والارض ، ففَثَت نفسي ، وأخذني الدوار ، وهممت بالسقوط ، فأغمضت عينيّ كيلا أرى شيئاً .

أغمضت عيني ، وفتحت قلبي ، فرأت البصيرة ما لايراه البصر :

رأيت أني قد ذهبت أتخطى أعناق القرون ، وأطوي سجل الزمان ، وأدير بفكري دولاب الفلك ، فيكر راجعاً .

ازّخرفت هذه الجدران العارية وأخذت زينتها ، وعادت هذه الابواب ، وأسدلت عليها ستر الوشي والديباج ، وتحلّت هذه السقوف بالصور والنقوش ، وتدلت منها سلاسل الذهب تحمل الثريات المرصعة باللؤلؤ .

عاش الايوان ، وقام في صدره سرير أنوشروان ، ورجع المجد وعاد السلطان .

وحلّت الحياة في هذه الصحراء ، فنبعت المدائن والقصور من الارض نبعاً ، ونبتت منها نباتاً ، فنمت في لحظة وأورقت وعلت واستطالت ، ولوّن الخيال هذه البرية الكالحة بألوان الزهر ، فعادت حدائق وبساتين كانت لهذه المدائن كالإطار ، فرأيتها أعظم المدن ، وقصورها أفخم القصور ، والايوان أجلّ صروحها وأعلى ذُراها .

ورأيت هذه الأبواب التي كانت منذ ساعة تفضي من الصحراء الى الصحراء ، مفتحة للرياح والذئاب ، قد قام عليها الحجاب ، ووقف دونها الملوك ، وحلّ على أعتابها المجد .

والجدران التي كانت عارية مصدعة ، قد شمخت وبذت وعزّت ، حتى غدت والطير تخشى أن تطير فوقها ، أو تحوّم في سمائها .

ورأيت دجلة التي كانت منذ ساعة تجري في البادية بعيدة ، بعيدة عن الايوان ، معرضة عنه ، لا تلتفت اليه ولا تأبه له ، قد غدت ساقية ،

تمشي خاضعة وسط المدائن ، وتنحني لتعقد على كتفيها القناطر والجسور ، وتفتح صدرها لتضم ظلال هذه القصور ، وهي تستنقع فيها في أمسيّات الصيف الحارة !

ودنوت بعيني الى هناك ، الى الحيرة ، فاذا الخوَرْنق السامق يعنو للايوان ، كما يعنو صـــاحبه لربه ، ورميت ببصري الى بعيد ، الى الجزيرة ، فاذا فيها أشباح تجيء وتروح خلال الضباب ، تموج كأنها في بحر واسع ، وكأن خيامها سفائن يحملها الموج ، ويمشي بها مدّ وجزر ، ولكن هذه الأمواج تتكسر على صخرة الايوان ، ثم ترتدّ ضعيفة وانية ، والايوان مشمخّرٌ عاتٍ .

لا ملك أعظم من ملكه ، ولا سلطان أعظم من سلطانه ، ولا إنسان أعز من ربه .

وأمتد ببصري الى المشرق والمغرب ، فلا أرى كالايوان ثروة وجاهاً وعظمة ومجداً .

ولكن ... مَه !

إن في البادية لشيئاً جديداً .

إنها تضطرب وتهتز .

إن فيافيها تتمخض بالحياة .

ها هوذا النور يشق الضباب الكثيف ، حتى يلمع كالبرق الخاطف ، بين قصور المدائن ، وتحت أقبية الايوان .

لقد ضرب محمد ﷺ صخرة الخندق ، فأضاءت المعجزة الايوان ، فوعده أتباعه وقال لهم : هذا الطريق .

يا للعجب العجاب !

إن هـــذه القرية الملتفة في ألحفة الرمل ، الناعمة على صخور الحرة ، المتوسدة سفح أحد ، وجوانب سلع ، تريد أن تأكل المدائن !

بلغ كسرى الخبر ، فضحـــك حتى استلقى . ثم جاء كسرى الكتاب ، فعبس وبسر ، وأعرض واستكبر ، ومزق كسرى كتاب سيد العالم .

لقد نطق سيد العالم بالحكم النافذ : ليمزقنّ الله ملك كسرى .

• • •

وفتحت عينيّ ، فاذا الحلم قد تصرّم .

غاضت المدائن في الأرض ، ونزعت الجدران ثيابهـــا ، وابتلعت الصحراء زهرها وورودها ، وعادت قاحلة ليس فيها إلا هذه الانقاض ، جاثمة على ظهرها ، قد حطمها الكِبَر ، وثقلت عليها السنون ، فانحنت حتى تسلق صبية القرية سطحها يلعبون عليه .

• • •

الصبية يلعبون على سطح الايوان !

أين كسرى يرى ما صار اليه إيوانه ؟

أبناء العرب يتلهون بمجلسك يا شاهنشاه ! لقد قوّض المجلس ، وثلّ العرش ، وهوى التاج ، فما أنجدك الجند ، ولا أغنى عنك الغنى ، ولا حمتك الحمية ، ولا آواك الايوان !

لقد مزق البدو ملكك يا كسرى ، وما هذا عجيباً ، فالتمزيق أسهل من الترقيع ، والهدم أهون من البناء ، ولقد هدم البرابرة من قبل

عرش الرومان ، غير أن هؤلاء البدو (يا ملك) أسسوا حضـــارة خيراً من حضارتك ، وبناءً أجل من بنائك ، وحكموا أعدل من حكمك .
لقد أثمرت حضارتهم حضارة قرن العشرين ، وحضارتك لم تثمر شيئاً .

لقد بنت ديموقراطية عمر ، الذي كان ينام على التراب ، ويلتحف بالبرنس ، ويؤدب بالدرة ، ويعين الفقير ، ويخدم العجوز ، وينصف من نفسه ، لقد بنت ديمقراطيته دولة .

اما جبروتك ، وعظمتك الجوفاء ، واستعبـــادك الناس ، فلقد هدمت دولة .

هذه بغداد الاسلام ، فيها أربعمئة وخمسون ألفاً[1] ، وهذا ايوانك تصفر فيه الرياح الباردة ، صفير الفناء المرعب ، وتنشد فيه الطبيعة نشيد الموت .

مَنْذا الذي كان يفكر أيامَ عز الايوان ، أن صبية العرب ستلعب على أنقاضه ؟

منذا الذي يفكر اليوم بأن أطفال طرابلس[2] ستقفز على اطلال روما؟

لا تتعجبوا من شيء إن الليالي يلدن كل عجيبة !

وليعتبر الطغاة ، فلقد كان كسرى (يوم كان كسرى) أضخم سلطاناً ، وأعظم بنيانا ، وأكثر أعوانا فأباد الزمان السلطان ، ودك البنيان ، وأهلك الاعوان .

. . .

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٣٧

(٢) لقد تحقق نصف الحلم ، فاستقلت طرابلس ، وطرد منها الطليان .

اعتبروا فهذا صرح كسرى ، خال موحش ، وهذا قبر سلمان ، عامر مأنوس .

قد مات القصر وعاش القبر ، قصر كسرى شاهنشاه الذي كانت تقوم على بابه الملوك ...

... ... ضاحين حسرى من وقوفٍ خلف الزحام وخنس

قد مات وغدا قبراً في الفلاة ، وهـــذا القبر ، قبر فارسيٍّ من عامة الناس ، يصبح مثوى الحياة ، تلتف به البيوت ويؤمه الزائرون ، يقفون حياله خاشعين ، ثم يعودون ولا يلتفتون الى الايوان وبينهما ثلاثة ذراع !

أين كان سلمان ، من كسرى أنوشروان ؟

أين كان من وزرائه وأتباعه ؟

وأين كان من خدامه وحشمه ؟

َصهْ ! لقد خلد سلمان بالاسلام فـكان أعظم من كسرى .

. . .

أما بعد فقد تكون الاهرام أضخم وأفخم ، وأعمدة بعلبك أجل وأجمل ، ولكن للايوان معنى آخر .

هنا كان يستقر جلال الماضي كله ، هنا كانت عظمة الملك ، وجبروت السلطان ، هنا كان الذي يستعبد الناس فيؤلّهه الناس ، لم يبق من ذلك كله شيء !

. . .

وكانت الشمـــس قد جنحت الى المغيب ، نتزلت ، ووقفت أودع الايوان ، فاقترب مني سائل أعمى ، وجعل ينفخ في ناي معه ، نغمة حزينة مؤثرة فـكان لها في تلك الساعة ، في صمت الصحراء ، ووحشة الايوان ، وغروب الشمس ، أثر في نفسي لا يوصف ، فقلت : آه ليتني كنت شـــاعراً !

ثورة دجلة

كتبت سنة ١٩٣٧

« ازدادت دجلة يومي الاربعاء والخميس ٣ ، ٤ صفر سنة ١٣٥٥ زيادة هائلة لم تكن منتظرة ، وغدت بغداد عرضة للغرق بين كل لحظة واخرى ، وسيق الناس كلهم للعمل على اقامة السدود ، ولم تغمض في بغداد ليلة الخميس عين ... وكان شيء عظيم ... »

كانت تجري في الوادي حالمة سكرى ، غارقة في بحر من الحب والشعر ، هادئة لا ترى فيها إلا آثار هذه القبل المعطرة المعسولة التي تطبعها الشمس على وجنتيها الصافيتين كل صباح ومساء ، تخطفها منها في غفلة من الكون ، فلا يبصرها إلا الشفق الذي يطل من نافذة الافق يرميها بنظرة الكاشح الحاسد ، فيحمر وجه دجلة الفتاة من الخجل ، وتغمض عينيها من الحياء ، ثم تسرع في جريها ..

وكانت تتلقى بين ذراعيها العاشقين المدلهين[1] ، كلما دجا الليل وأطفىء مصباح الكون ، وهم في الزوارق ذوات الاجنحة البيض التي تشبه قلوبهم في بياضها وخفقانها ، فتحدب عليهم ، وتحفظ أسرارهم ، وتمنحهم الخلوة الحلوة الآمنة ، وتغمر نفوسهم بالجمال والشعر ، حتى يغيبوا عن الوجود في حلم فاتن بعيد .

وكانت تغضي عن هذا التخيل العاشق ، وقد تعانق كل زوجين منه ،

(١) اعني الازواج الذين اجتمعوا بعقد الشرع ، لا الفساق الذين اجتمعوا بعقد ابليس .

وتلامسا بالشفاه ، واستسلما الى الغيبة الهنيئة ، وعن هذه القصور التي تفيأت ظلاله ، سكرى بخمرة الجمال ، قد ضمت أحناءها على حياة لذة وادعة ، ملؤها الحب .

وكانت دجلة جمال العراق ونعمته وحياته ..

وكنت أذهب كل مساء ، الى (جسر مود) ، أنحدر اليه من الرصافة ، أمشي في طريق ضيق ، كأني أهبط وادياً من أودية بلادي الحبيبة ، ثم أصعد حتى أبلغ ضفة الكرخ ، فأسلك شوارع الصـــالحية ، حتى اصل الى المطار .. حيث أبقى ساعة شاخصاً الى الافق البعيد ، اتبصر فيه طيف بلدي وأتحسس نسيمه فأشم فيه شذا الغوطة ، وأنشق ريا نشرها العطر ، وعَرف آسها ونسرينها ، وفلها وياسمينها ، ونرجسها ورياحينها .. حتى اذا قضيت من ذالك وطراً ، عدت وقد خلا الجسر ، فحييت دجلة ، وصببت في أذنيها آلامي وأحزاني ، واستمنحتها الراحة والاطمئنان ، ثم مضيت الى وكري المتعزّل ، في (الاعظمية) بنفس هادئة كدجلة ، مطمئنة كاطمئنانها .

. . .

وذهبت في مساء الامس ، كما كنت أذهب ، فاذا الارض قد بدلت غير الارض ، واذا الجسر الذي كان وادياً ننحدر اليه ، قد أمسى جبلا نتسلقه[1] وصار أعلى من الشــــارع وقد كان تحته ، واذا الناس يقبلون عليه ، فأقبلت معهم وعلى وجهي من الدهشة والحيرة مثل ما على وجوههم

---

(١) كان الجسر قائماً على عوامات يصعد مع الماء ويهبط معه ولم تكن قد انشئت هـــذه الجسور المستقرة .

من الروعة والفزع ، ونظرت فاذا النهر الذي كان يجري في الاعماق هادئاً متطامناً حالما ويبدو كأنه صفحة المرآة ، لا تنداح عليه دائرة ، ولا تموج فيه موجة ، قد علا وارتفع وعاد ثائراً هائجاً ، له هدير ودردرة ، قد علاه موج كالروابي ...

واذا هو قد نسي سنه ووقاره ، وأضاع حلمه وعلمه ، ورجع شاباً مجنونا أهوج ، يقفز ويصرخ ، ويقرع الارض بقدميـــه ، ويضرب بقبضتيه القويتين المخيفتين ، أبنية الشاطىء الآمن . ويعبث بهذه الكرات الحديدية الضخمة ، التي أقيمت لتثبيت الجسر العائم والتي ترجح بالقناطير ، وتزن الصخور الجلاميد ، ويقذف بها هنا وهناك كما يقذف الصبي كرته ..

واذا هو مرعب حقاً ، يدخل الروع على اجلد الرجال .

وكانت الوجوه كالحة ، قد ارتسمت عليها سمات الذعر الشديد ، والماء يرتفع .

لم يبق بينه وبين الشاطىء إلا شبر واحد .

لقد بلغ عمق المياه خمسة وثلاثين ذراعاً وعشرين معشاراً ..

إنه لا يزال يرتفع .

لقد صاقب الشـــاطىء .

إن بغداد في خطر .

. . .

وطارت كلمة الخطر على الالسنـــة ، ففزع الشعب ، واهتمت الحكومة ، ووضع قانون المساعدة الالزامية ، فابتدر الناس الشاطىء ،

واستبقوا الى العمل ، يقيمون السدود ، ويضعون للمجنون القيود، ولكن المجنون لايبالي بقيد الذباب .

إنه يقتل أمة منها بضربة واحدة .

. . .

ان النمر[1] يقفز في حبسه ويثب ، لقد جن .

إنه يريد أن يخرج فينبعث في الارض .

يريد أن يمشي الى هذه الجنات الظليلة ، التي طالما أمدها بالحياة ، وحمل اليها النعمة ، ليحمل اليها الموت !

وبدأ الصراع المهول بين الطبيعة والإنسان ، وأمسى المساء على بغداد ، وهي قائمة على قدم وساق ، ليس فيها من يبيع أو يشتري أو يلهو أو يلعب ، أو يطعم أو يشرب ، ليس لها إلا غاية واحدة ، هي النجاة من الغرق .

وكنت قد بلغت منزلي فصعدت السطح فانحسرت امامي صفحة النهر ، وهو يلتوي من حول الاعظمية كالافعى ، يطيف بها كالقضاء النازل ، وقد استرخى عند المنحنى وتمدد على الحقول والدور التي هجرها أهلوها ، فصار عرضه أكثر من ألفي ذراع .. وصار بحراً خضما ، ولكنه يركض دفاعاً يحمل في طياته الموت والغرق والخراب .

وكانت حمرة الشفق تخالط الماء ، فيلتهب فيبدو كأنه اتون مستعر ، أو كأنه جهنم الحمراء .

---

(١) اسم دجلة بالفرنسية Tigre وبالانكليزية (تايكرس) ومعناهما النمر .

وبسط الليل ثوبه الاسود على الدنيا ، فأخفى تحته ثمانية وأربعين الف شاب ، يشتغلون لينقذوا بغداد من الغرق المحقق ، ومن ورائهم اربعمئة الف قلب ، تحوطهم بالرعاية والحب .

واستمر الصراع والهول .

وكان الناس من الفزع والذعر كأنهم في يوم القيامة ، غير أن المرء في يوم القيامة يجد ما يشغله عن أمه وبنيه ، وصاحبته وأخيه ، وهنا أم حائرة مولهة قد ضاع منها ولدها في وسط الزحمة فهي تعدو وتصيح من غير وعي لا تدري أهو من الاحياء ، أم افترسه هذا النمر الجبار .

وهنا بنت تفتش عن أمها ، وولد ينادي أخاه ، وأسرة قد هيأت متاعها ووقفت على باب الدار تنتظر الساعة الرهيبة التي يطغى فيها الماء فيدك دارها وما فيها ويدعها فقيرة مسكينة ، مسكنها الشارع .

وشباب عصفت النخوة برؤوسهم فهم يقدمون ، يتسابقون الى الخطر .

وتلاميذ قد دفعتهم الحمية فأقبلوا يتبادرون الموت ، والجنود يعملون في كل مكان بهم الأسود .

كان الصراخ يملأ الجو : هتاف الشباب ، وانغام الجند ، وصياح النساء ، ونداء الاولاد . والنهر فوق ذلك كله يهدر هديره المستمر المرعب ، فيكون له في هذا الليل دوي مخيف ، والحركة متصلة ، والشوارع ممتلئة بالناس .. ولكن السلامة توالت ، ووقف النهر عن الارتفاع ، ولم يقع البثق الذي كانوا يخشونه ، وكان قد تصرم الهزيع الاول من الليل ، فأمن الناس وتفرقوا إلا قليلاً قاموا يحرسون النهر ، ودخلوا بيوتهم وولجت داري استريح ، فما لبثت أن ذهبت في رقدة عميقة .

رأيت فيها المياه تنساب في كل جهة ، تغني أغنية الرعب ، تقتلع البيوت ثم تلقي بها الى بعيد ، وتلج في باطن الارض ثم تقلبها بما عليها ، وتصعد في الجو ، ثم تنزل كالبلاء المصبوب . ثم انصدع صدع عظيم وهويت الى قعر الهاوية ، وكان حولي مئات من النمور والفهود والافاعي ، وسمعت رعداً شديداً ، ورأيت برقاً ومطراً ، ثم عادت الصخور تجري تدحرج آلافاً من الصخور ..

ففتحت عيني .

واذا الحلم حقيقة ، واذا الصيحة في الحيّ ، والقيـــامة قد قامت ، وصفارات الحراس ، وأبواق الجنود تصدح باستمرار ، والنساء يولولون ويعدون ، والاطفال تبكي وتركض في كل مكان ، والرجال تصيح طالبة النجدة ، وتبينت وسط الضجة الكلمة الرهيبة : كسر النهر .. النهر انكسر ! وتدفق سيل العرم !

إن هذا النهر الذي جاء من قمم الاناضول الشاهقة ، وسلك على السهول الممرعة ، والصحارى المجدبة ، قد تعب من سيره الطويل المضني ، فجاء يستريح على هذه الحقول التي زخرفها الربيع ، وأزهر فيها النارنج ، وفتح الورد والقرنفل والفل ، واترع نسيمها العطر ، فيحيل ذلك كله الى صحراء قاحلة .

جاء يغرس في هذه الحياة الرخية السعيدة بذور اليتم والفقر والنكد .

ولكن الذنب علينا ، لو أنا أنشأنا له مأوى يستريح فيه ، وسريراً ينـــام عليه ، لهجع فيه الى ايام الصيف ، ثم لخرج بالبركة واليمن الى اراضينا وبلادنا !

* * *

تركت الدار وخرجت اسبح في هذا الخضم من الناس ، أدفع النساء والشيوخ والشباب ، لأصل الى الشاطىء فأعمل عملاً .

ولست أدري ماذا أعمل ؟ ولست أحسن السبـــاحة ، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابي ...

ولم أفكر في شيء من ذلك ، لان الانسان لايفكر في ساعة الخطر ، وإنما يعمل .

فلما وقفت على الصدع هالني ، وارعبني ان النمر قد أفلت من القفص ، وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب ، كاشراً عن انيابه ، يزمجر ويزأر ، ويبرق ويرعد .

ان الماء يندفع الى العلاء بقوة الديناميت ، ثم ينزل على الحقول ، فيمضي مكتسحاً كل شيء في طريقه :

يقتلع الاشجار الضخمة ، ويقذف بها كأنما هي عيدان الكبريت ، وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق ، ويتدفق من كل جهة .. وقد ابتلع صوته المدوّي كل ضجـــة ، وملأ الاسماع بترتيلة الموت المستمرة ..

وكان لمنظره في ظلمة الليل صورة لاتوصف ..

واقدم الناس ، يسابقون الماء ليقيموا في وجهه السدود . ليقيدوا هذا النمر الهائج ، بحمية منقطعة النظير ، وحماسة نادرة المثال ..

وأقدمت اخوض هذه اللجة من الناس ، لأصل الى هـــذه اللجة الطامية من الماء .

أمشي في ظلمتين : ظلمة هذا الحشد المزدحم ، وظلمة الليل البهيم .
أتعرض لرهبتين : رهبة الليل وسواده ، والسيل واندفاعه .

أصغي الى لحنين : لحن الروع على ألسنة الناس ، ولحن الهول على لسان النهر ...

ولم أخشَ شيئاً . . إنها ساعة الخطر . .

بوركتِ يا ساعة الخطر !

أنت لحظة الانســـانية ، أنت التي تورق فيك اغصان الحب ، ويزهر فيك الاخلاص ، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين ، قد خرجوا من اطماعهم ، ومات في نفوسهم الحسد والبغضاء ، وعاش فيهـــا الحب والتضحية والاخلاص والوئام .

. . . .

تقدمت الى الامام ولكني لم اصل الى شيء ، لان الناس كانوا يستبقون العمل ، ويهرعون الى الموت ، كأن العمل غنيمـــة ، والموت وليمة ...

وكانوا يصرخون صراخ الحمية ، ويهتفون باسم الوطن والمروءة والشجـاعة .

ومرت على ذلك ساعة كاملة والصدع يتسع ، والماء يزداد اندفاعاً ، فكلّت الايدي النشطة ، وجمدت الصيحات والاناشيد على الشفاه ، وخامر الناس اليأس..

هنالك انتبهت فاذا انا اسمع النشيد الذي ارتقبه واصبو اليه ، ليس نشيد الوطن والمروءة ، ولكنه اجلّ واقوى ، النشيد الذي له قوة السيل ، وعظمة البحر ، وبهـــاء الشمس ، وصلادة الصخور .

النشيد الذي لا يقوم له شيء .

النشيد الذي كان اجدادنا يهتفون به كلما حاقت بهم شدة ، فيد كون به
ل حصن ، ويكتسحون كل عدو ، ويخلصون من كل خطر .

النشيد الذي يحيل الجبان بطلًا ، واليأس املًا ، والطفل رجلا .

ذلك هو نشيد الرجال والنساء والاطفال بصوت واحد يجري على قرع طبل ، فيشق الليل ، ويخشع له كل من يسمعه ، حتى النخيل والحقول السحاب والنجوم ، وهذا النمر الثائر .

الله اكبر ـ الله اكبر ـ لا إله إلا الله .

الله اكبر ـ الله اكبر ـ ولله الحمد !

. . .

وبدأ الصراع كرة ثانية .. واقبلوا على العمل بهمم لا تنثني ، وقلوب تلين ، وسواعد لا تكل ..

وصبّ النشيد في عروقهم روح الظفر .. فظفروا ..

. . .

وعندما كانت الشمس تطبع اول قبلاتها على جبين الكون كان الموكب الظافر قد رجع ، يحمل اجمل ازهار الرياض التي انقذهـــا وحماها من رق .. يمشي فيه الجند والطلاب ، بصفوف منتظمة ، قرأت فيها اروع شعر » الحياة .. كما تلوت في هـــذه الجماهير المنشورة في كل مكان لغ « نثرها » ..

وكان الإشراق يكسو الوجوه ، وغناء النصر يرقص على الالسنة .

فوقفت أحيي هذه المواكب الماجدة ، حتى غابت عني في طريقها الى بغداد :

الف تحية ايها الابطـــال الذين مشوا الى الموت ، لينقذوا بلادهم من الموت .

الف تحية ايها الشعب القوي العامل الجريء .

الف تحية ايها الطلاب المبرؤون الذين حملوا الفؤوس والمعاول ، واقاموا من جسومهم سداً في وجه هذا السيل الطامي ..

الف تحية ايهـــا الجنود البواسل ، يا حماة الديار ، يا من وطنوا نفوسهم على محاربة كل من يريد ببلادهم شراً ، سواء لديهم أكان جباراً من جبابرة الانس ، او عفريتاً من عفاريت الجن ، او قوة من قوى الطبيعة ...

لـكم مني الف تحية والف سلام !

★ ★

صورة ...

« إن وجدتم في هذه الكلمة صراحة في الوصف ، فلا تلوموا الطبيب فانه يصف المرض ، ليعين الدواء »

كتبت عام ١٩٣٧

كان شابا متأنثاً ، قد أصيب بمرض التجمّل ... فلم يكن يجيء الى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس[١] ليوم زفافه ، قد صفف شعره ودهنه وعطره ولبّده ، وعقربه على صدغيه ، وجمل وجهه وصقله وصنع به ما لست أدري ، وكشف عن أعالي صدره وأحاط عنقه بهذه العقدة ، التي يفتنّ في عقدها ،واختيار لونها ، واتساقها مع الحلة التي يلبسها افتناناً ،ولا يزال أبداً يمدّ يده اليها يتلمّسها ، ويصلحها ويطمئن عليها .

وكان اذا نظر غض الطرف من الحياء ، ودانى بين جفونه ، واذا تكلم تكلم بصوت حالم لين ، كأن ألفاظه تقول شيئاً ، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر ، تقول : إن رجولة صاحبي رجولة مزورة !

وإذا مشى تثنى وتخلّع وتكسّر ، وماج جسمه مَوَجانا ، وذهب كل عضو منه في ناحية كأن جسمه متفكك ، قد تقطعت أوصاله ،وتفصمت

---

(١) العروس في اللغة للذكر والانثى .

عراه وانحلت لوالبه ... واذا دعوته اقبل اليّ يتهادى ويميل ، فاذا وصل الى حيث اكون وجد أقرب متكأٍ فاستند عليه ، كأنه بناء لا يقوم إلا اذا اسندته بدعامة ، واذا كلمته خجل كأنه فتاة في الخدر ، وأجاب بصوت خافت يكاد يبتلعه الخجل ، فكنت ازعق في وجهه من الغيظ ، ثم أطرده طرداً .

ولم يكن ينصرف الى علم أو يقبل على درس ، لان عقله قد سال على جوانب جسمه خرقاً وثيابا ، ولم يبق منه في داخله ، ما ينفع لعلم او درس ، فهو دائماً ينظر في عطفيه ، ويتأمل ثيابه ، ويخرج من جيبه مشطه ومرآته ، ولولا بقية من حياء لأخرج ابيضه واحمره وقلم شفتيه .

وكنت أراه في باحة المدرسة فأراه غريباً عن هؤلاء الشباب لا يطيق حراكاً ، ولا يحسن لعبـــاً ، ولا يدفع عن نفسه اعتداء ، وما فيه من الرجولة إلا اسمه وبذلته .

• • •

وحاولت اصلاحه ، وتعهدته بالنصح والارشاد ، فكنت كمن ينفخ في غير ضرم ، فأيست من اصلاحه وكرهته وأبغضته ، وجعلت أزوي بصري عنه ، وأتناساه وأهمله ، ثم افتقدته فلم أجده ، ثم علمت أنه قد فارق المدرسة .

ومر شهران ، ثم رأيت في مكانه طالبـــاً جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية يلبس الثوب العسكري وعلى وجهه طابع الرجولة : له شـــاربان كاملان ، وأثر اللحية ظاهر على خديه ، والقوة والصرامة

باديتان في عينيه وملامحه ؛ وكان قوي النظرات صفّاقاً جهير الصوت ، ذكياً مقبلاً على الدرس ، فطناً ألمعياً ، وكان سريع الحركة جم النشاط ، إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة ، يطأ الارض وطأ شديداً ، وقد نصب قامته ورفع رأسه ، فإذا قام بين يديّ ، قرع رجلاً برجل ثم رفع يده بالســــلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك ؛ بل كما يرفع يده الجندي بالسيف يستلّه من قرابه ، واذا كلمته أجاب بجرأة وادب ، وكنت أراه في ســاحة المدرسة ، فأراه على اجتهاده وإقباله على العلم ، قويا نَشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم ، فاذا تمكن منهم وعلا عليهم ، عفا عنهم وأبقى عليهم ، فكنت أعجب من قوته ونبله ، وعلمه وفضله ، وأكبر فيه هذه الصفات .

. . .

ثم انني أحببت أن أشجّعه وأضرب منه للطلاب مثلاً فتكلمت وأثنيت ، وقلت : كم بين هذا وذاك من فرق . ! !

فصاح الطلاب : ومن هذا ومن ذاك ؟ إنهما شخص واحد !

قلت : ويحكم ! فأي معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر ، وأنشأته إنشاءً جديداً ؟

قالوا : يا أستاذ ... إنه تدرب على الجندية .

. . .

يوم الفتوة في بغداد

كتبت سنة ١٩٣٩

ذلك هو يوم الجمعة ٢٧ كانون الثاني، الذي انتقلت فيه بغداد كلها، فاستقرت في شارع الرشيد وشارع غازي ، لترى مركب الفتوة ، الذي يصل بين غازي والرشيد ، فينشىء المجد الجديد ، على أساس المجد التليد ..

وقد أتى الناس من كل فج عميق ، ليشهدوا بأعينهم كيف غدا أبناؤهم أسوداً صغاراً ، أشبالاً ، يدافعون عن الحمى ، ويحمون العرين .. ويبصروا ببصائرهم الآتي المجيد ، والمستقبل الزاهر ، وقد أشرق فجره من عيون أولئك الفتيان ، التي تبرق بريق الحماسة والاخلاص ، وقلوبهم التي تنطوي على التضحية والثبات ، وألسنتهم وهي تنشد النشيد الذي يوقظ الموتى ، ويصب الحياة في الصخر الصلد ، وأيديهم التي تهز البنادق ، تقول بلسان حالها : إنا نحقق ما نقول !

مرحى يا فتيان العراق ، عشتم للعروبة ، وسلمتم للاسلام !

• • •

أقبل الناس على شـــارع الرشيد ، قبل أن تقبل الشمس بوجهها على بغداد ، فملؤوا جوانبه ، واستأجروا مداخل المخازن ، وشرفات المنازل

والفنادق ، حتى بلغت أجرة المقعد الواحد ربع دينار ، ولا ترى في شرفة مقعداً ، ولا على رصيف مكاناً ، وتعلق الناس بالاعمدة ، وأشرفوا من الاسطحة ، وكانت الوجوه في بشر وانطلاق ، كما كانت الطبيعة متهللة باسمة في هذا اليوم المشهود ، والشمس بازغة ساطعة ، والانس في الارض وفي السماء .

وانتظر الناس ساعات ، لا يملّون ولا يضجرون .

. . .

وكنت في غرفتي في (الاعظمية) أهم بالنزول الى بغداد ، ثم يردعني خوف الزحام ، وكراهية الاختلاط ، وخشية ان يبتلعني هذا اللج البشري الهائل .

وكنت انظر في ركام الكراسات التي تبلغ المئات ، والتي جمع فيها كل تلميذ مايستطيع من الأخطاء والحماقات ، لأموت بتصحيحها ، وتقدير درجاتها ، فلا أمسها ، ولا أدنو منها ، وإنما أنصرف عنها أفكر في بلدي وأهلي .

أأهجع آمناً في بغداد ، وآنس مطمئناً ، وأهلي في دمشق يمشون على النار ، لا يدرون ألى موت أم حياة ؟

أأستمتع بالجمال ، وأتذوّق الحب ، وأنفق الأماسيّ الهادئة في مسارب الاعظمية ، أساير (الشط) وأتفيأ ظلال النخيل ، والشام قد ثار من تحته البركان ، وزلزلت منه الاركان ، وهبّ أهله هبّة المستميت ، يريدون الحياة كاملة ، أو الموت صرفاً زعافاً ؟

فكرت في ذلك فامتلأت نفسي كآبة وحسرة ، فقمت على غير شعور مني وانطلقت الى بغداد ، وما أدراك اليوم ما بغداد ؟

. . .

بلغت (الباب المعظم) وعهدي بالمكان أن فيه شوارع وميداناً ، فاذا هو بحر من الخلائق يموج بعضها في بعض ، وقد غرق في هذا البحر الشارعُ واختفى الميدان ، فوقفت حائراً لا أتقدم ولا أتأخر .

وطال بي الوقوف ، وخشيت أن أبقى كذلك الى المساء ، فتشددت وقلت :

ويحك يا نفسي ! لماذا الجبن ؟ وعلام التأخر ؟

ولماذا كنت تدفعينني الى ان أمارس ألوان الرياضة ، اذا كنت لاتستطيعين النجاة في مثل هذا اليوم العصيب ؟

وظننت نفسي قد اشتدت ، فشمرت عن ساعديّ ، وأقبلت أدفع هذا ، وأزيح ذاك ، وكلما دفعت عني واحداً حلّ مكانه عشرة ، فخارت قواي وأيست من النجاة ، واعترفت لنفسي بأني لم ابلغ بعد مبلغ عنترة (عنتر القصة) الذي يقبض على الرجل فيرفعه بيده فيضرب به الآخر فيقتل الاثنين ...

فوقفت فاشتد علي الضغط من كل جانب ، حتى أحسست كأن أحشائي ستخرج ، وضاق نَفَسي ، ولكن كل ضيق الى فرج ، فلم يكن إلا أن فرج الله عني فبعث رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فحملني الى الفندق الذي أريد .

. . .

وكان في شرفة الفندق اخوان لنا ينظرون ، فقعدت معهم ، ولبثنا ننتظر الموكب ، ونتحدث عن الفتوة في العراق ، ونستمع الى أحاديث الاخوان وهي للأديب كنز لاينفد .

وأشهد ان في العراق فتوة وشبــابا ، وأنه شعب عرف طريق الحياة فسلكه . ولقد رأيت من مظاهر الفتوة في بغداد ما جعلني أبكي من فرط التأثر .

رأيت في بغداد طفلا يدرج على باب منزله ، لم يتعلم المشي ولا النطق ، وهو يحاول ان يخطو خطو الجند ، ويوعز لإيعاز القائد : يُس . يُم أي : يسرى . يمنى ...

رأيت في بغداد اطفال المدارس الابتدائية ، يسيرون سير الجنود . يقودهم مدرس بلباس ضابط ، يدربهم على فنون القتال .

وذهبت مع الطلاب الى معسكر الانكليز في (سن الذبان) لمبــاراة رياضية ، فرأيتهم قد قلبوا المدينة الانكليزية الى حي من احياء العرب ؛ وأفاضوا عليها روحهم وشبابهم وفتوتهم ؛ فقلت : تبــارك الله ! اذا كان جيش من لاعبي الكرة لا يتجاوز الخمسين شابا فعل هذا كله ؛ فكيف لو جاء الجيش العربي: جيش المستقبل ؟ وسألت الطلاب في الامتحان هذا السؤال الازلي : ماذا يريد احدكم ان يكون ؟

فكان جواب الاكثرين انهم يريدون ان يكونوا جنوداً ؛ مشــاة وركباناً ؛ وبحارة وطيارين ؛ يدافعون عن امتهم ويذبون عنها كل طاغية او جبار ينبع من الارض او يهبط من السماء .

ورأيت اثر الروح العسكرية واضحاً في الطــلاب ؛ فالطاعة من غير

استخذاء ؛ والحرية من غير تمرد ؛ والنظام من غير جمود ؛ تلك هي صفات طلاب العراق .

وإن في مدرستنا الغربية لثلثمئة طالب ؛ والمدرسة سائرة سير الساعة المتقنة وليس في ادارتها الا مدير ومعاون ؛ مع ان مثل هذا العدد يحتاج في دمشق الى عشرة ضباط (معيدين) ثم لاتكون المدرسة كالساعة ؛ وانما تكون كالبركان الذي يهدد كل لحظة بالانفجار[1] .

فياليت شباب دمشق يعرفون الروح العسكرية[2] ؛ كما عرفها أشقاؤهم شباب العراق .

• • •

لبثنا ننظر الى الصحوة الكبرى ؛ والنـــاس لا يزدادون إلا تدفقاً ؛ فكأنهم سيول تصب في هذا الخضم العظيم ؛ والشارع يموج بالناس موجاً ؛ ويزخر بالخلائق ؛ وكلهم يتطلع وينظر ؛ وكلهم: يسأل متى يأتي الموكب ؟

وعمال الشركة الاميركية للسينما ماثلون بآلاتهم في الشرفات والزوايا ؛ ليصوروا معالم الحياة في بغداد .

وإن البحر ليموج ويزخر ؛ وان امواجه لتصخب وتضطرب ؛ واذا بالمعجزة قد وقعت ، فانشق كما انشق البحر لموسى ؛ وانفتح الطريق ؛ فنظر الناس ونظرنا ، فاذا الاعلام العربية تلوح بألوانها الاربعة التي تجمع شعار دول الاسلام ، كلها بأميتها وهاشمها وعباسها ، وترمز لفضائل العرب كلها :

بيض صحائفنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

---

(١) كان ذلك حين كتب المقال .

(٢) قد عرفوها الآن .

واذا الموكب قد لاح من بعيد ، كما يلوح الهلال الهادي ، للقائد الآيس . ويسطع كما يسطع نجم الامل في ظلمة القنوط ؛ واذا موسيقاه القوية تدوي في الآذان ؛ فيكون لها اثر في النفوس احلى من نداء الحبيبة في نفس المحب المشرق .

فحبس الناس الكلمات ، ووقفوا الانفاس ؛ يتطلعون ويترقبون ؛ والموسيقى تعلو والفتيان يتقدمون حتى وصلت طليعتهم ..

فما استطاع ذو شعور امساك دموع الفرح والرقة والتأثر ان تسيل ؛ وارتجت الارض بالتصفيق والهتاف ؛ كما ارتجت من قبل بهذه الموسيقى القوية المحبوبة ؛ وهذا النشيد الذي يسمع من خلاله صوت المستقبل البارع وتلوح في اثنائه خيالات المعارك المظفرة .

وكان الفتيان اطهاراً مثل الزهر اليانع ، لدنا كأغصان الروض ؛ ولكنهم كانوا اقوياء كدوح الغاب ، اشداء كأسود العرين ، وكانوا يسيرون صفوفاً متعاقبة على عرض الشارع ، مرفوعة رؤوسهم ، منتصبة قاماتهم ، موزونة خطاهم ، على اكتافهم بنادقهم وعدة قتالهم .

. . .

لا والله ما أحسست بالعجز مرة عن وصف ما أرى مثل عجزي اليوم . ومنذا الذي يقدر على وصف هذا الشيخ الهم ، ذي الشيبة السائلة على صدره وهو يلحظ حفيده الصغير ، يحمل البندقية ويمشي مختالاً مزهواً ، يحلم بأمجاد المستقبل ، ويذكر ما درس من أمجاد الماضي ، فلا يطيق منع الدموع ان تسيل من عينيه وتتحدر على لحيته البيضــاء .

اني لاسمعه يحمد الله على ان لبلاده جيشاً من أبنائها ولم يكن يرى إلا جيشاً واغلاً او دخيلاً .

ومنذا الذي يقدر على وصف هذه الام التي أمسكت بيد طفليها الصغيرين وهما يترثبان ليلحقا بالموكب ايريا أخاهما ، وطفقت تدعو الله دعاء هامساً يتصعد من خلال الزفرات أن يحفظ لها ابنها ، والوطن بنيه : « يارب سلّم» ما شاء الله كان .. يا رب سلم .. » وتبكي !

ومنذا الذي يقدر أن يصف شارع الرشيد في هذا اليوم ؟

يا أيها الرشيد ! قم تر المجد الذي بنيته لايزال قائماً .

قم تر الاحفاد قد نهضوا يسلكون طريق الاجداد .

قم ترنا لم نضع الامانة ولم نهلك التراث .

قم تر مجد غازي يتصل بمجدك كما اتصل الشارع بالشارع[1] فعادا جميعاً واحداً ؟

هؤلاء يا مولاى عدة المستقبل ، وهذا الجيش وهذه الآمال !

. . .

وفكرت فجأة في بلدي وأهلي ...

نحن هنا في فرحة والنار مشتعلة في فلسطين ، والنار توشك أن تلتهب في الشـــام !

أي مصيبة لم يرها الشاميون ، وأي خطب لم ينزل بهم ؟

(١) اي شارع الرشيد وشارع غازي .

أما خرب الاقوياء بلادهم ضربا بالمدافع وقصفا بالحديد وحرقاً بالهيب ؟

أما أخذوا ذهبهم وأبدلوهم به ورقاً أقفرت به الخزائن وافتقر به ذوو الغنى واليسار ؟

أما قطعوا البلاد حكومات ، وجعلوا من القرى دولات ، وقسموا الناس بدداً ليجعلوهم طرائق قدداً ؟

أما صبروا على هذا كله ؟

بلى ، لقد صبروا حتى لم يبق في قوس الصبر منزع ، واحتملوا ما لا يحتمل ؟

فلما نفد الصبر ، وبان طوق المحتمل ، هبوا هبة الحليم اذا غضب ، وياما أشد غضب الحليم !

أنكون نحن في فرحة ، وقومنا فى الشام في ألم ؟

وكدت أشعر بالحزن في قلبي ، ثم قلت : لا ، إن هذا هو الجيش الذي يجب ان يفرح به قومي.

إن بطولة العراق وفتوة العراق صفحة من سفر المجد العربي ، كما أن تضحية فلسطين ، وجهاد دمشق ، ونهضة مصر ، صفحات منه أخرى.

إن هذه كلها قوى متحدة ، تتوجه وجهة واحدة !

ثم إن دمشق لا تخاف شيئا ولا تخشى !

وماذا تخاف ؟

الرصاص ؟ لقد فتح له أهلوها صدورهم !

المدافع ؟ لقد أعدوا لها منازلهم !

اليتم والثكل ؟ لقد تعوده أبناؤهم وأمهاتهم !

إنهم يريدون أن يحيوا حقا أو يموتوا .

فهل يغلب شعب وطن نفســـه على الموت ؟

. . .

وكان جيـــش الفتوة لا يزال يسير ، والارض ترتج بالموسيقى والنشيد والهتاف والتصفيق والدعاء والبكاء ، فعاد الامل الى نفسي قويا ، هذه (بيه مونت) الوحدة العربية ، هذه (بروسيا) العرب ، هؤلاء عدة المستقبل ، وهذا الجيش ، وهذه الآمال !

فيا أهل دمشق ، ويا أهل فلسطين ، ويا أيها العرب ، في قاص من الارض ودان .

اطمئنوا فإن لـكم جيشاً !

ولما جاوز جيش الفتوة شارع الرشيد واتجه الى شـــارع غازي ماج البحر واضطرب ، وتدفقت وراءه الجموع ، وأسرعت أنا الى (الاعظمية) لادرك الصلاة .

وكانت نفسي تضطرم بأجمل العواطف ، وأبهى الصور ، ولـكن جمالها لم يستتم في نفسي .

إن في الموكب لنقصا ظـــاهراً . إن فيه لعيباً أفسد رواءه ، وأضاع بهجته . لقد تلطخ بالوحل بياضه ، وتدنس طهره ... أفما كان

في الامكان ان يقدم الموكب ساعة أو يؤخر ساعة ، حتى لا تضيع الصلاة على هؤلاء الفتيان كلهم ؟

هذا هو النقص ، فياليت الوزارة لم تنسه ... يا ليتها ساقت هؤلاء الجنود كلهم الى المساجد ليقيموا فيها الصلاة ، فان أجدادنا ما غلبوا عدوهم إلا بالصلاة ، والالتجاء الى الله ، وهوان الدنيا وأهلها عليهم ، وابتغائهم إحدى الحسنيين : الظفر لإعلاء كلمة الله ، أو الشهادة !

أفنحسب أننا نستعيض بالحديد والنار عن الايمان ؟

هيهات والله هيهات . ما النصر بالسلاح ولا بالذخائر ، ما النصر إلا من عند الله .

. . .

من ذكريات بغداد

كتبت سنة ١٩٤٦

ما الذي هاج في نفسي هذه العشية ذكر بغداد ، ونشر أمام عينيّ ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها ؟

ما الذي رجعني الى تلك الليالي حتى كأني — لفرط ما تشوقت اليها ، وأوغلت في ادّكارها — أعيش فيها ؟

أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي اليك ، فلم أنسَك إذ أنا في بلدي الحبيب ، ولم ازل أحنّ اليك وأشتاقك ؟

بغداد ... يا بغداد ، عليك مني سـلام الود والحب والوفاء ، على المعظّم على الصُّلَيخ على الكرّادة على الكرخ سلام الفؤاد المشوق الولهان .

على ليالينا « بين الرصافة والجسر » . ما كان احلى تلك الليالي !

لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة واحن الى الوطن ، فصرت في وطني أحن الى تلك الغربة ولياليها ، وما ظلمني موطني وما انكرني ، وما كنت لأذمّه صادقا فكيف اذمه بما ليس فيه ، ولكنها هي الدعة ، مللتهـا واجتويتها : إني اشكو ألم الراحة ، فأعطوني به راحة الالم .

ذلك الالم العبقري الذي يفتح القلوب بآيات الشعر ، فاني منذ فقدته لم اعد احسّ بأنني ذو قلب !

على الوستمية . . ألا تزال الوستمية جنة من جنان الارض ، حافلة بالعاشقين وبالحور العين ، ام طاف بها طائف من هذه الحرب فجفت خمائلها وهجرها قاصدوها ؟

على الصالحية .. بروحي صالحية دمشق وصالحية بغداد .

على (قهوة المطار) ، على ظبائها على جآذرها الف سلام .

على الجسر ... يا جسر بغداد ، كم جمعت وفرقت ، ماذا رأيت وسمعت ، كم وصلت بين قلوب وقطعت ، انت الصلة بين ماض لنا كان اعز من النجم واسمى ، وآت لنا سيكون اسمى من النجم واعز .

يا جسر بغداد ، يا مربع الحب والادب والمجد ، يا من كنت سرة الارض ، وكنت ليَ مسرّة القلب ، عليك مني الف سلام .

يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتي ، وخلفت فيها بقايا من فؤادي ، ماذا صنعت بفؤادي وحياتي يا ربوع ؟ !

. . .

ويا دارنا في (الاعظمية) من حلّ فيك بعدنا يا دار ؟

وهل صوّح لبُعدنا زهرك ام ضحكت من بعدنا الازهار ؟

وهل حفظت آثارنا ام لقد طمست من بعدنا الآثار ؟

لقد كنت انت مستقرّي ومثواي ، وكان اليك مفرّي من دنياي ، وكنت شـــاهدة افراحي كلها واتراحي ، وكنت مستودع أسراري واخباري ، كتمتها عن النـــاس إلا عنك ، فهل كتمتْ سرّي هذه الجدران ؟

هل سترت ما رأت من نقائصي التي اخفيتها عن الاصـــدقاء والإخوان ؟

ما هذه الدنيا يا ناس ؟ هـــذه الدار التي كنت أفرّ اليها من وحب الحياة ، وزحمة المجتمع ، فأغلق بابها عليّ ، واخلو فيها الى نفسي ، فأحسّ أنها جزء مني ، وأنها لي وحدي ، صارت غريبة عني ، تنكرني وتجهلني ، كأني لست منها وليست مني ، وصارت لغيري ، فاذا ما جئت اطرق بابها ، رددت عنها ، او قبلت فيها ضيفاً غريبا لا ارى إلا ما يراه الضيف ، ولا ألبث إلا ما يلبث ... لا يا سكانهـــا ؛ ما انا بالضيف الغريب ، إنها كانت داري ، إن لي فيها حقا ، لي فيها ذكريات ، فيها من حياتي ، من انفاسي ، من روحي !

. . .

ودار العلوم ؟ خبروني سألتكم بحق الاخاء عن ظلال ايامي فيها . سقى الله ظلالها صوْب القلوب !

خبروني ، ألا رجل كريم ، يحسن الى هذا البعيد النائي ، فيمر بالدار عند مسجد الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان ، فيصعد الى الغرفة التي تطلّ من هنا على صحن المسجد المنوّر المبارك ، ومن هناك على صحن المدرسة المزهر المشرق ، فيحيي عني هذه الغرفة ، فإني سكنتها عاماً ، كان لي عام دنيا ودين ، وفيها جددت طباعي وأفكاري وكونت نفسي .

ثم ليجل عني في هذه المدرسة ، في حدائقها ، في صحونها ، في ممراتهـــا ودهاليزها ، ثم ليصعد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى تتصل بقبة المسجد ،

وتشرف على تلك الحديقة العتيقة ، وتلك المقبرة المهجورة ، وعلى طريق الكاظمية ، فإن لي على هـذا السطح ذكريات ...

وإنني إن أنس لا أنس يوم العيد ، وقد خلت المدرسة من ساكنيها ، فلم يبق فيها غيري ، فأوغلت في هذه السطوح ، وصعدت حتى انتهيت الى أصل القبة ، ونظرت فإذا أنا على بحر من النخيل ، تهتز قممه من تحتي كأنها الامواج في اللجة الساكنة ، وتظهر في فُرَج النخيل طرق الفلاحين ، وقد خرجوا مع اطفالهم واولادهم بثياب لها مثل لون الزهر ، ثم تختفي خلال الاشجار ، كشاعر ساهر أو محب متعزل ، ذهب يناجي ذكريات الوصال .

ودجلة عند منعطف الصليخ تلوح بعظمتها وجلالها ، كأنها سماء من نور ركبت في الارض ؛ وبغداد ، بلد الاساطير والاحلام ، يبدو طيفها على حاشية الافق البعيد بقبابها ومآذنها ، كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة ، يقصها الافق المشرق على الدنيا .

والى اليمين قباب الذهب من الكاظمية ، والقبة الخضراء التي ثوى تحتها رمس مُلكٍ شابٍّ ، وشابٍّ مليك ، حين ثوى غازي بن فيصل بن الحسين بن عليّ !

لقد لبثت مكاني حتى شملت الظلمة الكون ، وضوّأت المصابيح في شبابيك المنازل فنظرت ... اليها ، أنا الغريب المنفرد ، الذي يمضي عيده وحيداً على سطح المسجد ، لا رفيق له الا ذكريات سعادة ولت تؤلمه وتحزّ في قلبه ذكراها ، وفكرت في أمري لو اصابني مرض فلبثت هنا شهراً ، فمنذا يصل اليّ ؟ من يسـأل عني ؟

وأي فؤاد يخفق من أجلي بعد أن سكت ذالك الفؤاد الذي كان خفاقا بحبي ، فؤاد أمي ، الى الابد ؟ نظرت اليها فغبطت أهلها إذ يغلقون ابوابهم على الشمل الجميع ، والاهل الحضور ، والانس والسعادة .

ونزلت في طريق الحديقة العتيقة ، واذا انا اتعثر بحجر . فنظرت اليه ، على شعاع ينحدر اليه من مصباح الشارع ، فإذا هو قبر متخلف من المقبرة التي كانت هناك في غابر الازمان ، فامتلأت نفسي بصورة الموت ، ولم اعد ألمس في هذه الغصون المخضرة الا الربيع الماضي الذي مات ، ولا ارى من الناس إلا قلوبا ميتة دفنت في صدور اصحابها ، ولا اجد تراب الارض إلا ناساً كانوا مثلنا وماتوا ... فأكلت هذه الاشجار اجسامهم ، وشربت دماءهم ، فمنه كان زهرها الذي نشم عطره ، وغصنها الذي نأكل ثمره ... ولم أر الدنيا الا موتاً في موت .

وأممت غرفتي وأنا غارق في بحر من الافكار السود ، فسمعت العشاء يرنّ في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طيات الظلام ، إذ يحمل اسم الله منيراً مشرقا ، فقمت الى الصـــلاة ، فلما قضيت وخرج الناس ، رأيت المؤذن ينادي على عادته بذلك الصوت الممدود : الفاتحة ! ثم يغلق المسجد وينصرف ، وابقى وحدي ، ليس في المسجد ولا في المدرســـة غيري ، وبينهما باب من داخل ، فأعود الى غرفتي .

وما كاد يكتهل الليل ، حتى سمعت الصوت في المسجد كرة اخرى ، ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً وانياً ، في نغم حزين ، من لحن الصبا ؛ فنظرت من شباكي ، فإذا في ارض المسجد الذي اشتمل عليه الظلام ثلاثه مصابيح بترولية خافتة النور ، تكشف عن نفر من الناس ، لا يبدو منهم

إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة فكأنهم الجنّ ، أو كأنه فلم مخيف من افلام الف ليلة ... ثم سمعت تكبيرات الجنازة ، فنزلت فرأيتهم يصلون على ميت في نعش .

فسألت : من هذا ؟

قالوا : مؤذن المسجد !

فانصرفت لأدوّن في دفتري ما عرض لي ذلك اليوم من صور وخواطر ، ثم أضعت الدفتر ونسيت الخواطر والصور ، ونسيت أن في الدنيا موتاً ...

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم ، وإني على هذا أشتاقها وأشتهي أن ترجع لي أيامي التي مرت فيها . فيا رحمة الله على أيامي في دار العلوم وعلى من بقي من أهلها السلام !

. . .

وإن أنس لا أنس (ليلة البلاط) ، يا ليت ليلة البلاط تعود !

لقد رجعت أنا وأحد اخواني العشية من الاعظمية الى بغداد ، فتركنا السيارات وجفونا الطريق الاعظم ، وسلكنا محجّة على سيف دجلة فسرنا فيها ؛ وكانت تنكشف لنا تارة فنسلكها ، وتضل (طريقها ...) تارات ، فنتيه بين النخيل ، وكان النهر ابداً عن أيماننا ، يبدو حيناً بصفحته البيضاء المشرقة التي تشبه وعد الوصال ، يشرق للمحبّ في ليل الهجران ، والامل البسام يلوح لليائس في غمرة القنوط ، ثم يحجبه عنا النخيل ويستره الظلام ، كما يخلف المحبوب بدلاله الوعد ، وتمحو الحياة بواقعها سطور الاحلام ،

وتطمس صور الاماني . وكان صديقي يحدثني حديث ماضيه فيثير في نفسي عالماً من الذكر الاليمة ، كلما نزلت به في اعماق قلبي ، ودفنته في هوة النسيان ، وحسبته مات ؛ انبعث فجأة ، كأنما ولد الساعة ، عالم فيه صور أبي وأمي وآمالي .

واستغرقنا في خواطرنا ، وغبنا عن حاضرنا ، فما نبهنا إلا جندي بحربته المسددة الى بطوننا وبندقيته الموجهة الينا ، وصاح بنا ؛ أن ارفعا أيديكما ؛ ففعلنا .

قال : ما أدخلكما حمى (بلاط الملك) ، وفيم انذركما فلا تقفان ؟ لقد هممت أن ارميكما بالنار !

وكانت تلك هي الاوامر ، ما بعد الانذار إلا النار .

فقلنا : نحن اديبان ، أرأيت أديباً نفع معه انذار ، او افاد معه تخويف ؛ ثم إننا برمنا بالحياة ، لا نرى فيهـــا إلا ماضياً لا سبيل الى إرجاعه ، وأملاً لا وصول اليه ، ولو أنت رميتنا لمننت علينا بميتة سهلة ، نرجو من بعدها ثواب الشهداء ، وإن الموت ياعسكري درجات ، وألوان بعضهـــا أطيب من بعض ، وما نظنك سمعت بدعاء الأعرابي الذي سأل الله ميتة كميتة أبي خارجة ، لان هذه الجفوة منك دلتنا على أنك لا تقرأ كتب الادب . أفتحب أن تعرف كيف مات ابو خارجة حتى صار موته أمنيّة ؟

أكل حنيذاً ، وشرب نبيذاً ، ونام في الشمس ، فمات شبعان دفآن ريان !

قال الجندي ، ولم يفهم منا شيئاً :

شنو إنتو يا بَه ؟

قلنا : نحن معلمون !

فضحك وأرخى سنان بندقيته .

وقال : معلمون صحيح ، أما غير مخبّلين ، (وغير هنا للتأكيد ومخبلين ، أي مجانين) ! وتركنا نمضي لان المجنون لا يسأل ...

تلك هي ليلة البلاط ، واني لا اذكرها إلا أسفت على هذه الميتة الحلوة التي فاتتني ، وخشيت ألا أتمكن من مثلها ، وأظن صديقي آسفاً مثلي ، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعليم البنات الادب ...

أما حياتي أنا فليس فيها لذة تستطاب ، وليس فيها ألم يستكره . أعني أنني لست انساناً يحيا ولكن (شيئا) يعيش !

تلك هي ليلة البلاط[1] .

. . .

---

(١) هذا البلاط الذي كانت تحميه حراب الحراس من قريب ومدافع الانكليز من بعيد ، تمنع الناس ان تدنو منه فترى ما وراء جدرانه من فسوق وعصيان ، وتبصر من فيه على حقيقته : اسداً على الناس ، ونعامة بين يدي المستعمر ، من كان يظن ان هذا البلاط ستقوضه ايدي الشعب على جثث من كانوا فيه ، وكانوا هم المالكين ؟

ثم تنبت سرحة الديموقراطية في مقبرة الملكية ؟

ألا لا يغتر بالدنيا احد !

مالي كلّ هذه الليلة ذهني ، ولم يسعفني شيطاني ؟

مالي أكتب عن بغداد ، فلا اذكر من ايامها الا هذا الحديث التافه ، وايام بغداد ، مواسم للمجد واعياد ، ولياليها فرحة الفؤاد ، وأسرّة للحب ومهاد ، وماضيها مآثر ومفاخر وامجاد ؟

مالي لا اتحدث عن دجلة ، ويا طول شوقي اليها ، والى زوارق المحبين وهي تمضي فيهــا حالمة سكرى ، والاغاني تتراقص على امواجها ضاحكة مرحى ، والسمك المسقوف . خبروني ، ألا تزال مرفوعة سقوفه ، مشتعلة ناره ، أم هوت من هول الحرب الدعائم وانطفأت النار ؟

ما لي لا أناجي اخواني وتلاميذي الذين عشت دهراً من عمري بهم ولهم ، وأسألهم أيذكرون هذا المعلم ...

أم قد مرّ في حياتهم مرور شخص (السينما) ثم تنقضي الرواية ، ويسدل الستــار ، فكأنما لا شخص مرّ بهم ، ولا (فِلْم) عرض عليهم ؟

أما أنا فاشهدوا يا تلاميذي ويا اخواني أني ما نسيتكم . أأنسى نجدة وعلياً[1] ونزارَ بن البطل الشهيد ، الا اذا نسي الاب أولاده ؟ أأنسى الاخ الاكبر (بهجة) العراق ؛ وقد طالما قبست الجزْل من فضــله ، ورأيت الفذّ من نبله ؟ ما نسيت ، ولئن كبا بي

(١) علي الراوي رحمة الله عليه .

القلم الليلة ، فسأعود الى الحديث عن بغداد ، وما كل مرة يكبو الجواد .

وعلى اخواني وتلاميذي وبغداد وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته .

• • •

يوم من أيام بغداد

« لعل ذكرى هذا اليوم تهز بغداد ، دار الاعزة
الصيد ، فيكون فيها لمصر وقضيتها يوم مثله ... »

كتبت سنة ١٩٤٧

طلعت جريدة (البلاد) على اهل بغداد ، صباح اليوم الاخير من آذار عام ١٩٣٩ ، وفي صدرها مقالة (لكاتب شامي يحمل اسماً كاسمي) ، ليست كالمقالات ، جملاً ترصف ، وكلمات تؤلف ، ولكنها قلب يتفطر ، وديناميت يتفجر ، عنوانها : « يا غازي . يا غازي . يا غازي » . وفيها :

« يا غازي ، تدعوك الايامى الثاكلات ، يا غازي يناديك اليتامى المظلومون ، يا غازي يستنصرك الضعاف العزّل ، والعجائز الركّع ، والاطفال الرضّع . يا غازي يهتف باسمك الشباب الذي يواجه بجسمه المصفحات ، وبصدره الدبابات ، ويحارب الدولة الطاغية الغاشمة ، لا سلاح له إلا إيمانه ؛ وأمله بالله ؛ ثم بالعرب ؛ وبك يا مليك العرب ؛ يا غازي !

يا غازي : دعوةَ غريق ينادي منقذه القوي !
يا غازي : هتافَ مريض يدعو طبيبه الآسي !

يا غازي : إهابةَ مشرف على اليأس بالسيد المأمول !

يا غازي : صرخةَ الدم ، واللغة ، والدين ، والمجد ، والجوار.

يا غازي : المدَد ! المدَد !

يا غازي !

لقد نادت امرأة واحدة ، في سالف الدهر : « وامعتصماه » فاهتزّ لها هذا العرش ، عرشك . وماج لها هذا الشعب ، شعبك . وخرجت الجيوش ، جيوش بغداد ، فلم ترجع إلا وفي ركابها المجد والنصر .

فمن غيرك ، وغير العراق لهذه الأمـــة التي حملت البلاء ، ورأت الشدائد ، وشاهدت ألوان الموت ، وخانها الحليف ، ونقض عهدَه لها القويُّ ، وجرّد دباباته الضخمة ، ومدافعه وعتاده ، ليحارب بها النساء والأطفال والشيوخ ؟

من غيرك وغير العراق لهذه الأمة التي تنادي اليوم : « واعراقاه » . « واغازياه » !

فقم يا أيها (المعتصم) ، لبّها على (الخيول البلق) فانّ كتاب التاريخ أعدّوا صحفهم ، وأمسكوا بأقلامهم ليكتبوا المفخرة مرة ثانية للعراق ، وللملك العراق !

إن الأمة التي أحبّت فيصلاً ، وأحبها فيصل تناديك اليومَ يومَ الخطب يا بْنَ فيصل !

إن الشعب الذي بايع فيصلا ، هو على بيعته لك ، فهل تضيع شعبك يا أبا فيصل ؟

إن القصر الذي كان يسكنه أبوك ملكاً ، والذي كنت تلهو في حدائقه طفلا ، هو اليوم مقر عدو العرب ، منه يصدر الأمر بتقتيل رجال العرب ونساء العرب ، يسكنه اليوم العدو الذي بغى على فيصل ، وسرق منه عرشه . فأنقذ تراث فيصل ، من عدوّ فيصل ، وعُدْ أنت الى قصر فيصل ، يا بن فيصل !

يا غازي

الشبـــاب الذين سقطوا في شوارع دمشق شهداءَ البغي ، ماتوا وهم يهتفون باسمك يا غازي .

العجائز تلقين أبناءهن المصرعين على ارض الوطن ، وهنّ يهتفن باسمك يا غازي .

يا غازي ، كم من طفل وطفلة ، عدا عليهم الظالمون ، فتلفتوا حولهم يفتشون عن المنقذ الذي حفظوا اسمه ، ورفعوا رؤوساً يسيل من جراحها الدم ، وأشاروا الى الشرق بأصابعهم الصغيرة الخضبة بالنجيع الأحمر ، ورددوا اسمك : يا غازي !

يا غازي ! بك علقوا الآمال ، ومنك ينتظرون العون ، أفتدع هذا الشعب بين براثن الوحوش يعبثون بكرامته وأمجاده وحياته ، وكرامته كرامة العرب ، وأمجاده أمجادهم ، وحياته حياتهم

أتتركهم يموتون ، وبغداد تستروح رائحة الربيع العطر ، وتستمع الى جرْس النشيد الحلو ، وتنام على فراش النعيم ؟

يا مليكي !

هـــذا يوم من أيام التاريخ له ما بعده ، فلا يقولنّ التاريــخ : « يا ليتهم نصروا الشـــام في وقت محنته ! يا ليتهم لم يدعوه رهن الحديد والنار » !

الشام في كرب شديد ... الشام في ضيق !

لقد ضجّ لما يعاني الشام قبر محمد ، يا سليل محمد !

لقد اهتزّ الحطيم وزمزم ، ومادت جبـــال مكة ، يا حفيد شريف مكة !

يا مليك العرب : الشام يدعوك .

الشام يستجير بك .

الشام يهتف باسمك : « يا غازي . يا غازي . يا غازي ! » .

* * *

نشرت المقالة في أشهر جرائد بغداد ، فألهبت شبابها .

وشباب بغداد كوّنت أعصابهم من نور ومن نار ، وخلقت أيديهم من الندى ومن الحديد ، وملئت قلوبهم نخوة وسماحـة ، وأترعت شجاعة وكرماً .

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا ســـالموا أعزوا ذليلا

وإذا عز معشر زال يوما منع السيف عزهم أن يزولا

وشباب بغداد ، جند العروبة حيثما كان للعروبة أرض ، وحماة الحمى ، وأسد الغاب .

إن أطلقت رصاصة في الشام ، أو في مصر ، أحسوا أزيزها .

وإن أشعلت فيها نار وجدوا حرّها .

وإن سقط شهيد كان عندهم مأتمه .

وإن أصيب جريح كان في ضلوعهم ألمه .

وشباب بغداد إن غضبوا ، الإعصار الجارف ، والبحر الطاغي ، والصواعق المنقضة ، والموت ـ هل من الموت مهرب ؟

وشباب بغداد إن رضوا ، النسيم الرخيّ ، والربيع الطلق ، والسلسبيل العذب ، والحياة ـ هل في الوجود أحلى من الحياة ؟

وعلم شباب بغداد ، أن ديار الشام في خطر ، وأن (حلفاءها) قد نقضوا عهدهم لها ، وعادوا كما كانوا أعداءها ، فأسروا كرامها ، وسوّدوا لئامها ، وجرعوها من (مدنيتهم ...) الصاب والحنظل المسموم ، وأن شعب الشـــام قد لبس لأمة الجهاد ، ونزل الى الشوارع يجالد البارود بالحجارة ، ويرد الدبابات بالخناجر ، حتى سقطت الدور على أهلها فغدت لهم مقابر ، وامتلأت بالأبرياء السجون ، واشتد الخطب وعظم البلاء ، وقلّ الناصر ، وانقطع المدد ...

... واشتعلت الحماسة في صدور شباب بغداد ناراً ، ومشت هذه النار في قلوب الشعب ، فلم تمض ســـاعات حتى صار حديث الشام حديث الناس في كل مكان ، في القهوات ، والطرق ، والمنازل والمدارس ، ولم يعد الطلاب يصغون الى درس ، أو يستمعون الى مدرس ، أيشتغلون بالمفاضلة بين الفرزدق وجرير ، وبحساب بعد القمر ومســـاحة سيبريا ،

والشام غارقة في دماء بنيها ، عابقة برائحة البارود ، رازحة تحت أثقال المدافع ، تطؤها نعال الفرنسيين والسنغال ؟

أيطلب الشكلاطة من لا يجد الرغيف ؟

أيقرأ الأشعار من تأكل بيته من حوله النار ؟

إنهم يريدون أن يطيروا الى الشام ، ليطبقوا في ساحاتها ما تعلموه في دروس الفتوّة من فنون القتال .

وفوجيء الناس في المساء ، بإذاعة هـــذه المقالة من محطة الملك الخاصة ، في قصر الزهور ، فلما انتهى المذيع من تلاوتهـا ، كانت مفاجأة للنـــاس أشد وأمجد ، حين سمعوا صوت الملك غازي الذي يعرفونه ، يقول :

« لبيك . لبيك يا سورية ! » .

فـكانت هذه الكلمة سحراً ماضياً جعل كل منزل في بغداد ثكنة ، وكل قهوة معسكراً ، وكل رجل جندياً شـــاكي السلاح ، ينتظر الامر بالهجوم على الجن والإنس والعفاريت لا يهاب شيئاً ، ولا يخشى أحداً ، ما دامت الحرب حرباً مقدسة لنصرة الشام ، والقائد الملك الشاب الحبيب .

وكانت حال لا توصف ، ولا تصوّر ، ولا تمحو الايام أثرها .

. . .

ودعا ناظر الثانوية المركزية في صبيحة الغد نفراً من المدرســين العراقيين والشاميين منهم كاتب المقال ، وأفهمهم سراً ، (ولا ضير

اليوم في إذاعة هذا السر) أن الحكومة ترغب في مظاهرة احتجاجية على فرنسا ، وأنه ترك لنا أمر تنظيمها ، فكان ذلك أحب الينا من خزائن المال نعطاهـــا ، وأسمى المراتب غنحها ، وخرجنا فأخذنا في عملنا .

وكان في بغداد وضواحيها عشر ثانويات ، فاقتسمنا ثانوياتها العشر ، ينفرد كل منا باعداد طلاب مدرسته للمظاهرة ، وتفننا في هذا الإعداد واستبقنا فيه ، وكنت امرأ أكتب ولكني لا أحسن بيتاً واحداً من الشعر ، فبحثت عمّن ينظم لمدرستنا نشيـــداً لهذا اليوم فلم أجد ، فنظمت أنا أنشودة مهلهلة النسج ، ضعيفة التأليف ، لكنها خارجة من القلب وتقع في القلوب ، ثم وضعت لها (أنا ...) لحناً لفقته من ألحان الأناشيد التي كنت حفظتهـــا قديماً ونسيها الناس ، وعمدت الى لوحات صنعناها من القماش ... فكتبت عليها كلمات تعبر عن الحقيقة التي امتلأت بها نفوس البغداديين مثل :

« الله جعلنا أمة واحدة فلن تفرقنا يد مخلوق »

« نحن جند الوحدة ، إننا سنكتبها بالدم »

« من تعدى على دمشق فقد اعتدى على بغداد »

« لبيك لبيك يا سورية ، إننا آتون »

« يا سورية ، لن تضامي وشباب العراق في الوجود »

وسهرت مع الطلاب في كتابتها وتلوينها ، وأنا الذي لم يمسك من قبل (ريشة) قط .

. . .

ولم أنم تلك الليلة بل كنت أنتقل من مكان الى مكان ، حتى إذا أصبحنا بكرت الى ساحة الاجتماع ، وهي الساحة الفيحاء بين دار الكتب والمتوسطة الغربية ودار المعلمين العليا ، فوجدتها تعج بالطـــلاب من كل مدرسة ، وكلهم بلباس الفتوّة لا يمتاز طالب منهم من طالب ، فكيف أجمع طلاب مدرستي وأصفهم ؟

وطفقت أصرخ ولا سامع ولا مجيب .

ومن يسمع النداء في هذا المحشر الذي جمع فيه عشرة آلاف طـــالب متحمس كلهم يصيح ويتكلم ؟

ثم ألهمني الله فكرة فدعوت عريفـــاً من عرفاء الطلبة ، ميّزته من شرائط الفضة على ذراعه ، فانتصب أمامي ، وحيّا ووقف وقفة عسكرية ينتظر مني الامر . فقلت له : صفّ هؤلاء الطلاب .

فأعاد التحية وقال : حاضر .

وانصرف ، وأنا أعجب منه كيف يقول : « حاضر » ، وقد عجزت من قبله عن ذلك ويعجز عشرة من أمثالي !

وإذا به يدعو طالباً معه بوق ، فينفخ به ، فتقع المعجزة ، ويعمّ الصمت ، كأن المتوكل قد طلع بضوء وجهه ...

... ... فانجلت تلك الدجى وانجاب ذاك العثير

ثم ينفخ فيه أخرى ، فإذا هـــذه الخلائق كلها ، تغدو صفاً طويلاً صامتا مرتبا .

وقدمني إخواننا فقلت فيهم خطبة . ومشينا ، حتى اذا بلغنا أوائل ميدان باب المعظم ، قابلتنا مواكب الشعب الهائلة آتية من حيّ الفضل وتلك الارجاء ، فتدانى الجبلان ، والتقى البحران ، فصارا بحراً واحداً ، تلتطم امواجه ، وتعلو أثباجه ، بحراً من الناس ملأ باب المعظم وافواه الشوارع المفضية اليه ، والارض البراح من هنا ومن هناك .

وقام الخطباء في كل مكان فلم يبق في اللغة كلمة تمجيد إلا قيلت للشام ، ولا لفظة تحقير إلا سيقت لفرنسا ، ولا جملة تعبر عن القوة والإيمان والاستعداد إلا ألقيت على الناس ، ولا شيء يهز القلب ويحرك العزائم إلا كان . ثم مشى هذا البحر .

والى أين تمشي البحار ؟ والشوارع قد سدت بالناس ، والناس على الأرصفة وفي الشرفات وعلى الأسطحة . وفي كل مكان هتاف ونداء ، فالطلاب ينشدون ، والعامة يحدون ، والنساء يزغردن ، والتكبير والتهليل ، والمواكب تمتد ، والخلائق تتوافد ، حتى حلت بغداد كلها في شارع الرشيد من باب المعظم الى الباب الشرقي ، وكان يوم ما رأيت له مثيلا قط .

. . .

إننا لم نخض في ذلك اليوم ملحمة ، ولا شهدنا معمعة ، ولا أرقنا لعدوّ دماً ، ولم نجاوز فيه الكلام ، ولكنه كلام جعل كل فتى من هؤلاء الفتيان بطلا ، وترك في نفسه ذخيرة تمدّه بالقوة دهراً ، وصبّ في نفسه من العزة ما جعل نفسه أسمى من النجم ، واكبر من الدنيا.

كلام ولكنه كان أساساً من الصخر الراسي في صرح الوحدة العربية غداً والاسلامية بعد غد .

كلام ولكنه أرهب العدو وخلع قلبه ، وردّه عن قصـــده ، ..فم من عدوانه .

كلام ولكن بمثله تحيا الامم ، وتبنى النهضات ، وتكتب تواريخ المجد .

كلام ، وإن من الكلام لفَعالاً من أعظم الفَعال ، وقوة من أمضى القوى ، ومجداً من اسمى الامجاد .

* * *

إن الشام يذكر لك يا بغداد في عرس الاستقلال ، ما أسديت اليه في بؤس الاحتلال ، فهلا اتخذت عند مصر يداً مثلها تذكرها لك يدُ الدهر ؟

إن مصر ، يا بغداد ، أختنا الكبرى في العروبة ، وقضيـــة مصر قضيتنا ، ووادي مصر وادينا ، وعدو مصر عدونا ، وإننا إن نخذلْ مصر نخذلْ بلادنا ، وإلا نكنْ معها نَخُنْ أمتنا

يا بغداد ، يا ذات المجد ، يا مثوى البطولة ، يا عرين الآساد ، إن مصر قد عدا عليها العادون ، وكشر لها عن انياب الذئب ، من كان يجيئها ايام الحرب في فروة الحمل ، سائلًا يطلب منها العون والمال .

إنه يريد الآن ان يفرق بين اسودها واسمرها ، واعلاها وادناهـــا ، ويسرق منها نصف واديها ، أفتنامين يا بغداد في سُرُر الامان ، ومصر في الشوارع تصارع الذئاب ؟

يا بغداد ! اليوم يومك ، يا بغداد ! !

تحية وشكر

« زار وفد النادي العربي بغداد سنة ١٩٣٨ فكان الاحتفـاء به عظيما ، وكان اكرامه سابغاً ، فنشرت هذه الكلمة في جريدة البلاد ، تحية لأهل بغداد وشكراً »

يا أهل العراق :

إرحموا قلوب اخوانكم من أهل الشام ، فانها مملوءة بحب العراق ، وشعبه الحبيب ، وحكومته المجيدة ، وأرضه وسمائه ، وماضيه وحاضره ، وكل ما يحتويه العراق ، فارحموها .. لا تحملوهـا فوق ما لا تطيق ، لا تكلفوها من حبكم شططا ، لا تحملوا عليها كرمكم كله ، فانها قلوب لاتطيق القلوب حمل البحر الخضم ...

أنهـا قلوب ، هل تملك القلوب إلا الحب ؟ والالسنة ؟ هل تطيق الالسنة إلا الشكر ؟ هذا جهد المقل ، فلكم من اخوتكم ، من أشقائكم الساكنين داركم الاخرى ، الصغيرة ، القائمة على سفح قاسيون ، وضفاف

بردى ، الحب كله والشكر كله ، خالصاً لكم .

ولكنكم ، يا أهل العراق ، ما رحمتم هـــذه القلوب ، ما اقتصدتم في الكرم .

* * *

ما رحمتموها ...

هؤلاء فتيان دمشق ، قد عادوا وعلى ألسنتهم سورة جديدة من سور الحمد ، وقصيدة من قصائد الثناء .

فمتى نتلوها ؟ هل تركتم لنا (نحن الشاميين) وقتاً ، ألم تملأ الوقت بالثناء عليكم ؟

قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى نيرة ، سيشيع نورها في دمشق فيجلو لاهلها كرمكم وعظمتكم .

* * *

قد عادوا وفي نفوسهم ذكرى عطرة ، سيفيض اريجها على الغوطة ، فتتضوع من أزهارها عطور بغداد .

ومتى خلت أزهار الغوطة من عطور بغداد ؟

* * *

يا أهل العراق :

ان كل حفلة أقمتموها لهذا النادي انما هي تكرمة لدمشق ، وسطر

جديد من كتاب الاخوة التي الفت سفرها العصور ، ونظمت ابوابها يد الحق الابلج ، والواقع القاهر ، وكانت مادتها العقيدة واللغة والنسب والجوار ، أما العنوان فقد أملاه الله من فوق سبع سماوات : (إنما المؤمنون إخوة) .

أفيتناقش الناس بعد ذلك في (الوحدة) أتكون أو لا تكون ؟

• • •

يا دكتور طه حسين !

انك لن تحل عقدة عقدها الله ، انك لن تستخرج من نفوس المصريين إيمانهم ، ولن تنزع من ألسنتهم عربيتهم ، بحديث صحفي تدلي به ، وأنت في (ماربيت باشا) مسافراً الى فرنسا[1]...

ويا .. يا (اولئك) الناس ؟

إن خشبتين منصوبتين في عرض البادية ، لن تمنعا البحرين إذ يلتقيان ، لن تمحوا وحدة العقيدة واللغة والنسب والجوار والذكريات والآمال . فلا تختصموا ولا تنازعوا ..

قد وضح الصبح لذي عينين !

• • •

(١) وهو حديث عندي نصه منشورا ، فيه انكار للعروبة،وحرب الوحدة،وقلم طه حسين كالحرباء كل يوم له لون ، وما لونه الا لون ما حوله ، ولقد كتب في الكفر وليس كافراً ، وكتب الآن في الاسلام وليس متدينا ، وطرق كل موضوع وما يعتقد موضوعاً مما طرق .

ومنذ الذي يقول ان أعضاء النادي العربي كانوا غرباء في بغداد ؟

ومنذ الذي يقول أن وفد الفتوة العراقية كان غريباً هـذا الصيف في الشام ؟

اعقلوا يا ناس !

فان الالماني يدخل فرنسـا ، وان الفرنسي يلج المانيا فلا يمشي فيها ساعة حتى يرى كل شيء قد تبدل ، فلا اللغة باللغة ، ولا العادات بالعادات ، ولا الوجوه بالوجوه ، أما العربي . .

أما أنا في بغداد

ماذا تغير علي ؟ أليس ماضي بغداد ماضي ؟ وحاضرهـا حاضري ؟ أليس الرشيد خليفتي ؟ وغازي مليكي ؟ والوحدة والعزة أملي ؟

وبواتيه ؟ ألا تبكيني كما تبكي البغدادي ؟ وفلسطين ؟ ألا تشغلني كما تشغله ؟ ألا أفخر بامجاد بني العباس كما يفخر بامجادهم ؟

أليست اللغة لغتي ؟ والمسجد مسجدي ؟ والعادات عاداتي ؟ والوجوه وجوه أهلي ؟

فماذا بعد هذا ، يا ناس ؟

. . .

فتحية طيبة ، وشكراً شكراً ، يا أهل العراق ، يا حكومته الجليلة ، ويا شعبه الحي ، على ما أكرمتم به وفدنا ، على ما أكرمتم به اخوانكم من سكان الجانب الآخر من المنزل ، ولكن لا . لا شكر .

جل الأمر عن الشكر .

لا شكر . إن الأخ لايشكر أخاه !

. . .

يا أهل العراق ، لا أقول هذا تزلفاً ولا أريد عليه مكافأة ، ولا أقوله باسم النادي فلست منه ولا انتسب اليه ، وما كنت شريكه في الذي ناله من إكرام ، ولا دعاني أحد الى حفلة واحدة من هاتيك الحفلات كلها ، ولكن أقوله لأنه الحق ولاني احب العراق ، مشرق أملنا اليوم ، ومصدر النور لنا ، ومعقد رجائنا ، فمن شاء فليصدق ، ومن شـــاء فليطر مع الظنون السود ثم ليهبط حيث اراد .

اني أحببت العراق قبل أن اعمل فيه موظفاً ، وسأحبه بعد ان أدع العمل[1] ، كما يحبه اليوم كل عربي ، وكل مسلم ، واني ارفض ان آخذ على حبي أجراً من أحد ، فصدقوا اذا شئتم !

يا أهل العراق تحية طيبة وشكراً شكراً وحقق الله الرجاء .

. . .

---

(١) وهانذا بعد كتابة هذا الفصل بثنتين وعشرين (٢٢) سنة لا ازال على هذا الحب ، فلا يقل احد في العراق اننا قد قصرنا في الوفاء !

نوري السعيد

أذيعت في آخر سنة ١٩٥٦

أبدأ هذا الحديث بـ (الحمد لله) ، لا الحمد التقليدي ، الذي تفتتح به الخطب ، والذي لا يعدو كلمة تقال باللسان ، لا ينطق بها الجنان ، بل أنا احمد الله حقيقة ، احمده من اعماق القلب ، على أن أرانا الفجر الصادق ليوم المجد الجديد ، المجد للعرب وللمسلمين .

ولقد كنا اذا فخرنا من قبل ، اسكتتنا السيوف التي صدئت في الاغماد ، والعزائم التي هجعت في النفوس ، والقوى التي استرخت في السواعد .

وكنا اذا ذكرنا الماضي العزيز ، كذبتنا شواهد الواقع الذليل ، فضجّت السيوف في أغمادها حتى سُلّت ، وثارت العزائم في نفوسنا حتى وثبت ، وعادت الى سواعدنا قواها ، ورأينا نحن من أنفسنا ، ورأت الدنيا منا ، اننا اهل لماضينا ، وان إرث البطولة لم يفقد من قلوبنا ، وأننا أبناء اولئك الجدود .

لم يكن ينقصنا (كما قلت لكم مرة) إلا السلاح ، السلاح الجديد الذي

قصّر العثمانيون ، فلم يحملوه يوم ظهر ، ولم يتعلموا العلوم الجديدة التي صنعت هذا السلاح ، ولبثوا على ما عندهم ، فسبقنا الناس بعد ان كنا نحن السابقين .

كان ينقصنا السلاح فقط ، فلما صار في ايدينا منه ، استطاع رجل من مصر ، أن يقول (لا) ، حين قالت الدول الكبرى (نعم) ، وأن يقف بمصر ، بل ببلد صغير من مصر ، في وجه دولتين كانتا تعدان يوماً أقوى دول الارض ، وكنا نظن انهما لن تغلبا ، وانه لا سبيل لنا عليهما .

ولئن تسلح العرب والمسلمون ، التسلّح الكامل ، فليقفنّ في وجه اهل الارض جميعاً ، وليحاربنّ الجن والانس والشياطين ، وليَبْنُنّ بشفرات سيوف المجاهدين وعلى أساس جماجم الشهداء ، مجداً جديداً ، يزري بالمجد التليد .

. . .

وشيء آخر يا أيها السامعون ، هو اننا لم نغلب في اشد ايام ضعفنا ، لم يغلبنا المستعمرون بقوتهم ، ولم ينتصروا علينا بسلاحهم ، ولكن كنا نحن نهدم بايدينا مجدنا ، كانوا يضربون بعضنا ببعض ، وكانوا يسلطون بعضنا على بعض !

من قضى على حكومة الامير عبد القادر في الجزائر ؟

وهل كان يغلب أو يستسلم لولا ان وجد أعداؤنا أناساً منا يعينونهم علينا ؟

هل كان يغلب لولا الخائنون ؟

ومن ذهب بثورة الامير عبد الكريم من بعد ؟

والثورة السورية ، من قوض دعائمها ؟ الفرنسيون الذين جاؤوا من باريز ، أم فرق المتطوعين من الذين يسكنون سورية ، والذين أطعمتهم سورية وسقتهم وآوتهم وأكرمتهم ؟

ومن ضمن لانكلترا ، ولفرنسا كل نصر نالته في مئة السنة الماضية ؟

هل ضمن لانكلترا النصر إلا الهنود ؟

وهل ضمن لفرنسا النصر إلا المغاربة ؟

ومن أخذ الشام من آل عثمان ، ورفع يدهم عنها حتى وضع الانكليز والفرنسيون أيديهم علينا إلا نحن ؟ نحن الذين خدعنا بوعودهم واطمأننا الى عهودهم ؟

كانوا يسلطون بعضنا على بعض ، وكانوا يضربون بعضنا بأيدي بعض ، وها هم اولاء يلجؤون اليوم الى هذه الخطة القديمة .

يريدون أن يضربوا العرب بالعرب ، والمسلمين بالمسلمين ، فجاؤوا بعميد الانكليز[1] ، وابليس السياسة العربية ، بنوري السعيد ، وبهذا الحلف الملعون ، حلف الشياطين .

وحسبوا أنهم اذا كسبوا نوري السعيد فقد كسبوا العراق ، لان العراق

(١) اردت به عبد الآله ، ولكن لم يمكن يومئذ التصريح باسمه .

كما كانوا يظنون ، ويظن كثير من الناس خاتم في اصبع نوري السعيد ، فان شاء أدخله في أصبعه ، وإن شاء نزعه من أصبعه .

وان الوزارة قيد إشــارته إن شاء تسلمّها ، وإن شاء تخلّى عنها .

وأنه الرجل القدير الجريء المحنّك ، الذي ليس له نظير .

وأنا اعرف العراق كما اعرف الشــام ، وأنا رجل عاش في العراق أربع سنين ، وأكل من خبز العراق ، ولي في العراق اخوة واصدقاء ، ولي في العراق تلاميذ ، كانوا تلاميذي من عشرين سنة ، وهم اليوم من أركان العراق ، فاذا تكلمت عن العراق ، تكلمت كلام الخبير .

ان الوزارة قيد اشارة نوري السعيد حقيقة ، ونوري السعيد قدير جريء محنك لاشك في هذا ، ولكن قوة نوري السعيد ليست بمنزلته عند الشعب ، بل لمكانته من الانكليز .

وما أذكر ان حضرت مجلساً خلال اربع سنين عشتها في العراق ، وخلال زوراتي المتعاقبة للعراق ، وذكر فيه نوري السعيد ، إلا أجمع الناس على وصفه بانه عبد الانكليز ، ولعنوه وأعلنوا البراءة منه .

وتردده على الحكم تسع مرات الى الآن ، ليس لأنه صديق الشعب ، ولا لأنه المسيطر على العراقيين ، بل لصلته بالانكليز .

ومواهبه كلها ، وقدرته ، وجرأته ، وحنكته ، كل ذلك مسخر لخدمة الانكليز ، وما قيمة المقدرة اذا لم تكن مسخرة للحق ؟

إن ابليس أقدر بلا شك ، وأجرأ ، وأشد حنكة ، ولكنه ابليس وجند ابليس كلهم من اللصوص والقتلة والمجرمين ذوو قدرة .

هل يسرق اللص ويرسم الخطط للسرقة ، ويقتل القـــاتل ويعد العدة للقتل إلا وهو قدير ؟ فلا قيمة للقدرة وحدها إن لم تكن معها الفضيلة .

ونوري السعيد له مزية الثبات على مبدئه ، انـكليزي ، انكليزي عن عقيدة وإيمان ، كما يقولون ، ولكن ابليس كذلك له مزية الثبات على المبدأ عن عقيدة وايمان ، ابليس ابليس ، ما بدل ولا غيّر ، ولكن هذا الثبات لا يسوّغ أن نرضى عنه ، بل نلعنه مرتين ، مرة لانه كان شريراً ، ومرة لانه ثبت على الشـــرّ ، ولم يتحول عنه ، ولم يتب منه .

أما حكم الله في نوري السعيد وأمثاله ، فهو في نص القرآن :

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله وباليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »

صدق الله العظيم .

وقال تعالى : « ومن يتولهم منـكم فإنه منهم »

فنوري السعيد تولى الانكليز ، فهو من الانـكليز ، هو المستر نوري السعيد .

وياليته كان يواليهم موالاة الند للندّ ، بل هو نعـــامة معهم ، وأسد على أمته .

أسد ؟ استغفر الله ، ان الأسد لا يهاجم امرأة ولا صبياً ، الا اذا

اضطر الى ذلك ليعيش ، وغلبه الجوع ، ونوري ، عفواً المستر نوري ، لا يستطيع ان يهاجم إلا النساء والاطفال واولاد المدارس .

يضرب ابناء العراق ، برصاص العراق ، ويسخر اموال العراق ، لحرب شعب العراق .

لماذا ؟ ليبقى في الحكم ، ليبقى فيحقق للانكليز ما يريدون .

• • •

واني ما كنت أحب والله ان أدخل نفسي هذه المداخل ، وكنت أتألم حينما أجد المحطات العربية تتبادل السباب بعد ان كانت تسب كلها اليهود .

ومن كان السبب ؟ هـــذا الرجل الذي باع نفسه للانكليز ، كما باع (فاوست) نفسه للشيطان .

وللعامة أمثال عجبة ، والمثل العامي يقول : لا تلوموا الذي يسب الناس ، بل لوموا الذي يدعو الناس الى سبّه !

ما كنت احب ان اسب نوري السعيد ، ولكن لما تحققت من انه يريد أن يثيرها في سورية شعواء مجنونة ، ويسلط عليها أعداء العروبة والاسلام ، ولما رأيته يضرب شعب العراق بالنار ، ولما قرأت أسماء المعتقلين وهم اخواني وأحبائي وهم خيرة رجال العراق ، لم اعد استطيع الامتناع عن سب نوري السعيد .

اسبّه لابرىء العراق من ذنبه ، ان العراق بريء من جرائم هذا

الرجل ، ومن المؤامرات التي اعدّهـا .

ان شعب العراق ، أمضى شعوب العرب ، وأشدها اباء ، واوفاها للمروبة ، ولكن من طبعه ان يحتمل طويلاً ثم يثور ، فإذا ثار ، فلن يهدئه الحديد ولا البارود ولا النار .

ولقد شهدت ثورته على بكر صدقي ، وكيف اودى به ، وقد كان بكر صدقي أرجل من نوري وأقوى .

وشهدت ثورته على نوري يوم دبر قتل الملك غازي . لقد كنت هناك ولي على هذه الجريمة التي دبّرها عدو الله الدلائل .

وشهدت الوثبة على معاهدة بورت سميث .

وها هوذا العراق يثور ، واذا ثار العراق فقد انتهى نوري .

انتهى ، انتهى هـذه المرة ، وانتهى الى الابد ، فلن تقوم له قائمة بعد اليوم .

انها قضية أيام فقط وتسمعون خبر انهيار هـذا الصنم الذي نصبه الانـكليز ، لقد تنبه العرب ولن يعودوا الى عبادة الأصنام ولن يضرب بعضهم بعضاً بعد اليوم[1] .

★ ★

---

(١) لقد انهار الصنم ، ونسأل الله ان يعيد الصفاء بيننا كما كان .

نداء لم يجد مجيباً

أذيع قبل ثورة العراق بأسابيع

يا جلالة الملك فيصل

في آذار سنة ١٩٣٩ كانت سورية تخوض معركة من معاركها المتصلة في سبيل الحرية ، تحارب العدو الغاصب ، وتتلقى بصدور ابنائها رصاصه وناره ، وتقف بأجساد رجالها ونسائها وتلاميذ مدارسها امام دباباته ومصفحاته .

كانت تناضل الفرنسيين كما يقاتل العراق اليوم الانكليز ، ولكن من كانت تقاتلهم سورية كانوا فرنسيين لحماً ودماً ولساناً ، وكانت أسماؤهم جورج وميشيل ، ومن يقاتله العراق اليوم ، عرب الدم واللسان ، ولكنهم انكليز القلب والحب ، عرب المظهر وانكليز الجوهر .

قد اتخذوا لهم أسماء مستعارة يتخفون وراءها : (نوري) وفلان وفلان ، وحقيقة أسمائهم ايدن وتشرشل وكلوب ! وكنت يا مولاي أعمل في بغداد ، كنت مدرساً فيها بعيداً عن أهلي وبلدي ، فكان يلذع فؤادي أسى ، أن أبيت آمناً ، أتفيأ ظلال النخيل على سيف دجلة ،

واضحى بشمس الاعظمية ، وأهلي هناك يتجرعون غصص الموت، ويعالجون سكرات الخوف .

وما قامت قبل ذلك مظاهرة ، ولا كانت معمعة نضال من سنة ١٩٢٨ الا كنت فيها ، لاني كنت تلك السنين كلها ، رئيس اللجنة العليا لطلاب دمشق ، فما ثمّ حركة يتحركها الطلاب الا كنت أنا محركها ، أو كنت مشاركا فيها ، او على علم بها .

وحاولت أن أستاذن وزارة المعارف العراقية وأعود الى دمشق ، فما تركني الفرنسيون أسافر ، فكتبت هذه المقالة التي أتلو على جلالتكم فقرات منها ، ونشرتها في صدر (جريدة البلاد)[1] ، فما كان المساء ، وكان لأبيك الملك غازي في (قصر الزهور) محطة اذاعة خاصة ، غير محطة الاذاعة العراقية ، فما كان المساء حتى سمع الناس المقالة تذاع من محطة القصر ، وسمعوا بعدها صوت أبيك يا مولاي . يقول : لبيك ، لبيك .

وراح يعمل .

وتسربت الى الناس اخبار الخلاف بينه وبين الانكليز ، هذا الخلاف الذي تعددت مظاهره ، وتكرر حتى يئس الانكليز من غازي، ووضعوا خطة الجريمة ، جريمة قتله بحادث السيارة المصطنع ، على يد نوري

---

(١) عدد الخميس ٣٠ اذار سنة ١٩٣٩ وقد مرت الاشارة اليها في هذا الكتاب .

السعيد ، ويد آخر[1] يعرفه أهل العراق كبيرهم وصغيرهم ممن شهد تلك الأيام .

وكان شعب العراق ، يغلي حماسة للجهاد ، وحمية لنصرة سورية ، ولو فتح له الطريق لمشى الى الشام مشياً ، يشـــارك اهل الشام محنتهم ، ويقاسمهم مصيرهم ، ولقد أقمت في العراق اربع سنين ، فما رأيتها ألمّت ملمّة ببلد عربي قريب أو بعيد ، الا أحس العراق ألمهـــا ، ولا كانت مشكلة عربية الا حمل العراق همها .

واذا رأيتم العراق اليوم في عزلة فلأنّ نوري ولأن عبد ايدن[1] ، هما اكرهاه عليها ، وسيخرج باذن الله منها .

وارعز الملك غازي للحكومة ان تدع الشعب يعلن ما يبطنه من شعور النصرة لسورية ، بل زاد على ذلك فأمر الحكومة ، فأعدت مظـــاهرة يقوم بها الطلاب ، فدعت طائفة من المدرسين ذوي الالسنة والعزائم ، واكثرهم من السوريين ، وكنت معهم .

ورسمنا طريق المظاهرة ، واعددنا لها ، وسهر الطلاب يهيئون الاعلام ويكتبون عليها اصرح ما في اللغة من كلمات التمجيد لجهاد المجاهدين من اهل الشام ، والغضب على عدوان المعتدين من الفرنسيين .

وأعدت الاناشيد الحماسية ، وأنا الذي لم يكن شـــاعراً قط ، نظم في ذلك اليوم اكثر من نشيد ، منها نشيد (يا مليك العرب غازي) الذي اشتهر ورددته الالسنة زمناً .

---

(١) المقصود به عبد الاله .

هذا النشيد الذي نظمته وأنا غير شـــاعر ، وزدت فلحنته وأنا غير موسيقي ، ولكن الحماسة التي أثارها ابوك يا جلالة الملك ، ان النار التي اوقدها ابوك في ضلوع العرب جعلت العيي فصيحاً ، والجبان بطلا مقداما ، وقامت مظاهرة ، اشهد وقد عشت في بلد المظـــاهرات ، وشهدت الوثبات المتصلة من سنة ١٩١٨ الى ان جلا الفرنسيون عن الشام ، وثبة الفرح واليقظـــة خلال أيام الحكم العربي ، ووثبة الجهاد والنضال أيام الانتداب ، فما رأيت مظـــاهرة اكبر ، ولا يوماً اعظم من ذلك اليوم .

لا والله ، ولقد مرت عليه هذه السنون كلها ، ولا ازال كأني اعيش فيه الآن .

لم تكن مظاهرة تمشي ، ولم يعد لها اول ولا آخر ، كانت تمتد من الباب الشرقي الى باب المعظم – وقد سدت الطرق ، وامتلأت بالناس ، وقام في كل مكان خطيب ، وافتنّ النـــاس في الاهازيج والهتافات والاناشيد ، وتفتحت القرائح ، وتفتقت الالسنة ، عن روائع لم يستطع مثلها الشعراء ، ولم أر يوماً مثله الا يوم مقتل غازي وربما اذعت وصفه في حديث آت .

يا جلالة الملك فيصل ، هـــذا يوم من ايام بغداد ، شهدته وأنا رجل كبير ، فكان له في نفسي هذا الاثر ، ولا ازال كلما ذكرته ، استمدّ منه حماسة وقوة ، فكيف بأثره في نفوس الشباب .

هذا يوم من ايام بغداد . لقد كانت بغداد على عهد ابيك قلب الوحدة العربية الذي ينبض فيه دم الحياة ، ثم يخرج منه قويا نظيفـــاً أحمر ،

أفترضى يا مولاي ان تكون بغداد على عهدك ، قلب الحلف الانكليزي ؟

وكانت حكومة أبيك تدعو المدرسين ليثيروا الطلاب احتجاجاً على عدوان الفرنسيين على أهل الشام ، أفترضى يا مولاي أن تكون حكومتك هي التي تعدو على أهل العراق ؟

ولقد هتفت بأبيك أقول : يا غازي ، يا غازي ، ادرك اهل الشام ، فقال لي أبوك : لبيك ، لبيك . أفترضى أن اهتف بك : يا فيصل ادرك اهل العراق ، أنقذهم من نوري ، ومن عبد ايدن ، الذي ينفق اموال العراق ، ويسخّر سلاح العراق ، ليقتل شعبك شعب العراق ، ارضاء لعدوّك وعدو العراق ، وعدوّ العرب ، للانكليز ، فلا تردّ ؟

يا فيصل يا ملك العراق .

إن علماء العراق في السجون ، إن في السجن الامام العلم الذي يفاخر به هذا القرن القرون الماضيات ، الشيخ امجد الزهاوي .

إن شباب العراق في القبور ، إن في القبر حفيد الإمام المجتهد الشيخ محسن الحكيم .

ان ثرى العراق مضرج بدماء ابناء العراق .

لقد نال أمة العراق من الاذى والضر على يد نوري ، ما لم ينلها مثله على ايدي الانكليز ، ولا على ايدي المغول .

يا فيصل ، تدعوك الايامى الثاكلات .

يا فيصل ، يناديك اليتامى المظلومون .

يا فيصل ، دعوة الحق ، يا فيصل ، نداء العدل .

يا فيصل ، صرخة الوطن والعروبة والدين .

يا فيصل ، المدد المدد ، الغوث الغوث ، لا تترك شعبك يذبحه الانكليز بأيدي زبانية نوري السعيد .

يا فيصل :

لقد كان على هذا العرش يوماً ملك نادته اسيرة من بلاد الروم ظلمها آمروها : (وامعتصماه) فاهتز لندائها هذا العرش عرشك ، وماج لها هذا الشعب شعبك ، وخرجت جيوش بغداد فلم ترجع إلا وفي ركابها المجد والظفر ، أفيرضى رب هذا العرش اليوم ان تناديه الاسيرات في بغداد فلا يجيب ، أسيرات لم يظلمهن رومي ولا بزانطي ، ولكن انكليزي يلبس جلد عربي ، يظلمهن ويذبح ابناءهن ، ويقتل رجالهن ، وهن يصرخن ، (وافيصلاه) ، فأين انت يا فيصل ؟

أين أنت يا ابن غازي ؟ لتسمع النداء .

نداء الاسيرات في بغداد ، نداء اخواتك وخالاتك ، وأمهات شعبك .

فقم يا أيها المعتصم ، لا لتلبيها على الخيول البلق ، ولا بالجحفل اللجب ، بل لتلبيها بكلمة واحدة منك تقولها لهذا الظالم الفاجر .

قل له : دع الوزارة واخرج منها مذؤوماً مدحورا .

اخرج منها فما يجوز أن يحكم رجل شعباً ، وهو يريق دماء ابناء هذا الشعب ، ويبيعه للأعداء .

لو كان الامر بتقتيل ابناء العراق يصدر باسم الملكة اليزابيث لهان علينا أن نقتل بأيدي عدونا ، ولكل أمة في الدنيا عدو تنال منه وينال منها ، ولكن هـذا الامر يصدره باسمك الرجل الذي خانك ووالى عدرك .

فقل له الكلمة التي ننتظرها منك ، من عروبتك ، من هاشميتك ، من ابن غازي ، قل له : اخرج !

قلها يا مولاي ، قبل ان يقولها الدهر بلسان البركان المتفجر[1] .

قلها ، قبل ان تقولها الثورة ، التي تطيح بنوري ، إن الثورة لا زمام لها ، فاذا لم تدفعها عنك بطرد نوري ، طردت الثورة من العراق من هو اكبر من نوري ، كما طردت الثورة من مصر من كان اكبر رأس في مصر : فاروق .

وهذا يا مولاي نذير ، من صديق للعراق .

● ● ●

(١) لم يقلها فقالها الدهر بلسان ثورة تموز .

ثورة تموز في العراق

أذيعت يوم الثورة من محطتي دمشق وبغداد

ساقني القدر في مطلع شبابي الى الصحافة ، فاتخذتها لي حرفة ، وتنقلت بين الصحف حتى انتهيت الى الجريدة الوطنية الكبرى (اليوم) فكنت اعمل فيها . اكتب وأصحح وأراجع .

وكنت رئيس لجان الطلبة في دمشق ، وكان آخر ما افكر فيه او يخطر لي على بال ان اكون موظفاً ، ولكنّ الرياح تجري بما لا تشتهي السفن .

واصبحت يوماً فاذا الجريدة قد أغلقت ، ولجان الطلبة قد حلّت ، واذا أنا بلا مال ، وفي عنقي عيال ، فاضطررت الى الوظيفة ، وغدوت معلماً في المدارس الابتدائية ، وكان ذلك من اكثر من ربع قرن ، وكان المستشار (راجه) هو المسيطر على المعارف ، وبيني وبينه تراث من قديم .

وكنت افور بالحماسة واغلي من النشاط ، أكتب وأخطب وأثير

الناس ، وكانوا يريدونني على السكون والخنوع ، فضاقوا بي وضقت بهم ، وآذيتهم بقلمي ولساني ، وآذوني بالنقل والعقاب ، حتى اذا لم يبق للاحتمال مجال ، وضاقت بي السبل فررت الى العراق .

واقمت في العراق سنوات اربعاً ، شهدت فيها الثورة على ياسين ، ومقتل جعفر . ثم رأيت سقوط بكر ، ومصرع غازي . ثم ابصرت نهضة الفتوة ، وثورة رشيد عالي ، وعهد النكسة والانتقام ، حين عاد البلاء على أيدي من كانوا سادة لنا وهم عبيد الاجانب ، وكيف صارت الوطنية ذنباً ، والاخلاص جريمة ، وكيف كرّم الخونة وشنق الاحرار ...

... ورجعت من العراق وقد حملت منه ألف ذكرى ، وخلّفت فيه خمسة آلاف تلميذ ، صار منهم سبعة وزراء واربعة عشر عقيداً في الجيش ، وصار منهم رؤساء استئناف ، واساتذة في الجامعة ، وصار منهم شعراء وكتاب ، وتركت في العراق قطعاً من نفسي ، وبقايا من حياتي .

ولبثت على الوفاء العراق ، الذي آواني يوم ضاقت بي بلدي ، وعرف لي قدري يوم بخسني من كان هنا حقي ، احنّ ابداً اليه ، واذكر أبداً ايامي فيه ، ما اعرف من وفى له اكثر من وفائي ، ولا من كتب عنه ممن درّس فيه مثلما كتبنا نحن الثلاثة : الزيات ، وزكي مبارك ، وأنا(١) ، وبقيت ابداً أثني على العراق ، واذكر بالخير وبالإباء وبالكرم اهله .

وكان يجادلني بعض من لم يعرف العراق من اخواننا ، ويقول : أما

(١) ولا اعرف من الشعراء من نظم فيه مثلما نظم انور العطار .

ترى العراق ، قد استخذى ولان ، حتى ربطوه بحبل الحلف ، ثم خضع وخنع ، حتى جرّه به الى نصر العدو وحرب الأخ ، شيخ السوء نوري ، وفتى الشر عبد الآله ؟

فأقول : انتظروا .

ان العراق ينام ولكنه لا يموت ، انتظروا ، تروا كيف يفيق الاسد ، فيقطع هذه الخيطان التي قيده بها هؤلاء الصبيان ...

وانتظروا ، وانتظرت ، فما تحرك العراق ولا أفاق .

وناديت فيصل من هذا المذياع[1] ، يا فيصل انقذ العراق من عدوّ العراق . يا فيصل احم نفسك من قتل أباك . يا فيصل . يا فيصل . فما رد فيصل ، ولا حركته تلك الصيحة التي تحرك الصخر ، وما كان يملك حركة ولا ردا .

وهتفت بشعب العراق ، وذكّرته ببطولاته وأمجاده ، واعدت عليه ذكر أيامه ، ومثل أيام العراق لا ينسى ، فما سمع ولا استجـــاب .

وترك هؤلاء النفر من الخوارج ، يجولون أسْداً في طرق بغداد ، ويتسللون كلاباً في شوارع لندن ، حتى قطعوا حبل الأخوة بيننا وبين العراق ، ليربطوه بذنب الانكليز .

فتفرق الشمل الجميع ، وتعادى الاشقاء المتحابون ، ومشينا نحن في

---

(١) أثبتّ هذه المقالة في هذا الكتاب للذكرى والتاريخ .

طريق ، ومشى العراق في طريق ، بعدما كان الطريق واحداً ، والغاية واحدة ، وكتب على اذاعة بغداد ، بغداد العربية ، بلد الرشيد والمأمون ، أن تحمل قسطاً من عبء اسرائيل ، فتعاونهـا على سبّنا وشتمنا ، والافتراء علينا .

وصار العراق (الرسمي) يعادي الوحدة ، ولقد كان العراق أول من هتف للوحدة وتحمس لها ، وجعلها درساً في المدارس ، وكان من اكبر أمانيّ تلاميذنا في بغداد ، اذا قرؤوا قصة الوحدة الايطالية ، والوحدة الالمانية ، أن يكون العراق (بيامونت) أو (بروسيـا) ، فيحقق الوحدة بيديه معاً ، يد الشعب بعواطفه ورغباته ، ويد الحكومة بسياستها وسلاحها ، فكيف تبدلت الحال حتى صار ذنبنا ، عند حكام العراق ، اننا خطونا الخطوة الاولى في طريق الوحدة ؟

وكنت أعد نفسي من أهل العراق ، لاني اكلت خبز العراق ، ورأيت خير العراق ، واتخذته بلدي بعد بلدي ، فما كان بعد دمشق مدينة أحبّ اليّ من بغداد ، ولا كان بعد العتابا نغم احلى في أذني من الابوذية ، ولا كان بعد بردى نهر أجمل في عيني من دجلة ، ولا بعد الحور شجر أمتع لبصري من النخيل ، ولا كان بعد الصفيحـة في أصباح الربوة أكلة أشهى اليّ من السمك المسقوف في أماسي الشط في بغداد .

ما اضمرت لبغداد غير الحب ، ولا أكننت لأهلها إلا الوفاء .

فكان جزائي من حكام بغداد ان منعت من دخول العراق سنـة ١٩٥٤ ، ولم أدخله إلا بشفاعة رجال في بغداد ، من رجال العلم والادب ،

لا يستطيع أحد من الحاكمين ان يرد لهم شفاعة .

ومنعت كرة أخرى سنة ١٩٥٧ ، وما كان ذلك لاني كنت ضالعاً مع المعارضين ، ولا لاني كنت خصماً في السياسة للحاكمين ، فما لي في السياسة ناقة ولا جمل ، ولقد كنت في العراق (كما أنا الآن في الشام) أعيش معتزلاً لا احضر حفلة قط ، ولا ادخل حزبا ولا هيئة ، ولا امشي الى هناء ولا عزاء ، ولا استقبال ولا وداع ، ولا ازور إلا نفراً تجمعهم في العد الاصابع ، بل لقد منعت اول مرة ، لاني كتبت أقول ان النظام الملكي ليس من الاسلام ، وان الحكم في الاسلام ليس لأسرة بذاتها ، ولا لبيت بعينه ، وان الرئاسة لا تكون إلا بالشورى ولا تتم إلا بالبيعة . ومنعت بعدُ لاني كنت أول من أعلن قصة مصرع غازي ، وأنه لم يمت ولكن قتله الشقي غير السعيد نوري ، وابن عمه عبد الإله ، منعت من دخول بغداد وأنا أعد بغداد بلدي ؟

وأوذيَ فيها اخواني من أبناء مصر والشام ، وما في الشام ومصر إلا من يرحب بالعراقي ان رأوه عندهم ويفتح له قلبه وداره ؟

تفرق الشمل الجميع ، وتمادى الاخوة المتحابون ، فكيف تبدلت الحال ؟

أي عين أصابت العرب في إخائهم واتفاقهم حتى ردتهم أعداء مختلفين ؟ وماذا أقول لمن يلومني في الدفاع عن العراق وأبناء العراق ؟

لقد عاد اللائمون يقولون وأنا لا أجد في الدفاع عن العراق كلمة أقولها .

ماذا دهى العراق ؟

وكيف يقيم على المذلة والضيم ؟

كيف يدع نفراً من عبيد الانكليز يقيدونه ويسوقونه ليكون يوم الروع الفداء للانكليز ؟ كيف ؟ كيف يا ناس ؟

أترون العراق قد خلا من الاحرار ؟

أيخلو من الأسد العرين ؟

أم لقد أخاف العراق ، أن الطغاة نشروا الجراسيس في الناس حتى لا يأمن المرء جاره في الحارة ، ولا تلميذه في الصف ، ولا زميله في الديوان .

لأن الطغاة جعلوا الجار جاسوساً على جاره ، والتلميذ جاسوساً على أستاذه ، والزميل جاسوساً على زميله ، واستعملوا لذلك الرجال والنساء والاولاد ؟

وانهم يأخذون الناس من بيوتهم ، سرقة وغدراً ، بلا محاكمة ولا ذنب ، الى حيث لا يدري احد ؟

وانهم كموا الأفواه ، وقيدوا الاقلام ، وعدوا على الناس الالفاظ ، وأحصوا عليهم الأنفاس ؟

كيف خاف العراق ، وعهدي بمن في العراق أنهم لايخافون ؟

وانتظرت الوثبة حتى اذا طال الانتظار ، ولم أجد شيئاً ، يئست أو كدت ، وأوشكت أن أكفر بالعراق ، وشعب العراق .

حتى كان يوم الاثنين الماضي ، فرنّ الهاتف في ساعة ما ألفت أن يكلمني فيها أحد ، فقمت مذعوراً .

وقلت : من هذا السمج الغليظ الذي يزعجني عن منامي ؟

وفتحت فإذا أنا بقائل يلقي اليّ كلمة واحدة ويضع السماعة . قال : (افتح رادّ بغداد فوراً) .

قلت : قبحه الله ، وقبح رادّ بغداد ؟

ما لي لرادّ بغداد أما سمعته البارحة وهو يذيع في آخر الأخبار ، نبأ سفر النفر الاشرار الى اسطنبول ؟

أعنده أسوأ من هذا الخبر ليتحفنا به من الصباح ، أم هي سلسلة جديدة من الشتائم والأكاذيب .

وفتحت كارهـــاً فسمعت كلمة أطارت النوم من عينيّ ، وجعلتني أفرك أذني .

ماذا أسمع ؟ أأنا لا أزال نائماً ، وهذه بقية حلم من الأحلام ، أم أنا في يقظة ؟ ماذا أسمع : (إذاعة الجمهورية العراقية) ؟

وعدت أتأمل موضع الابرة لعلي غلطت ، أو لعلها محطة سرية ، ولكني لم أغلط ، وليست محطة سرية ، إنها محطة بغداد !

الجمهورية ، أي جمهورية ؟

ماذا وقع بين عشية وصباحها .

أزالت الملكية من العراق ؟ أوثب الشعب ؟ أمن نصف الليـــل

الى مطلع الشمس ، يتبدل كل شيء ، وينهار العرش ، وتقوم الجمهورية ؟

ولم أدر ماذا أفعل ، وأحسست أني أشتهي أن أصرخ أو أن أقفز ، اني اريد ان أوقظ الناس كلهم لأزف اليهم البشرى ، ولكني تثبت وقلت :

يا ولد انتظر ، لعلها مزحة أو لعلّ مذيعاً انطقت الحماسة لسانه بها فقبض عليه ، ولبثت أتسمّع فلا اجد إلا ما يؤكد الخبر ، انه الانقلاب .

وكانت فرحة للناس جميعاً ، وكنت احق بها لاني واحد من أهل العراق ..

لقد حسبنا اننا خسرنا العراق ، فرده علينا هؤلاء النفر الأباة الاحرار .

فيا أيها السادة الاحرار ، لكم الشكر ، لكم الشكر لانكم رددتم عليّ بلدي الثاني ، وجعلتموني ارفع رأسي بعودة الاتحاد بعد ان اضناه طول الانقسام ، لقد اعدتم لي ثقتي بالعراق وشعب العراق .

انها امة واحدة ، نص الله على وحدتها ، على لسان جبريل فلن تزيلها قوة بشر ، ولن تهدمها ألوان على المصور ، ولا خشبات عند الحدود .

لقد عدنا امة واحدة ، فـ (الحمد لله) !

★ ★ ★

صورة سوداء من بغداد

نشرت في بغداد سنة ١٩٣٧

كنت نازلاً اليوم من الأعظمية الى بغداد ، في سيارة من هذه السيارات التي يدعونها (الباص) ، وكان الى جانبي رجل مسلم على رأســه عمامة بلدية[١] . ويبدو عليه انه تعدى الاربعين ، وبلغ سن العقل والرشد ، فسرني جواره . وهممت بان أفتح معه باباً للحديث ، نركب به الطريق ، فلم اكد افعل .. حتى رأيته يخرج علبة دخائنه (سيكاراته) ويشعل دخينته وينطلق الوقح قليل الحياء يدخن علناً .

لا يستحي من الله ان يراه على شيبته مفطراً في رمضان ، ولا يخجل من الناس أن يروه عاصياً فاجراً ...

فحولت وجهي فاذا أنا بآخر يدخن في الطريق ، واذا هنالك ثالث في القهوة ، ورابع وخامس وسادس .. وما عشت من آكلين وشاربين ومدخنين ، فذهبت الى المدرســة فاذا غرفة المدرسين ، كأنها قاعة تدخين ، وكدت اقول ، كأنها (محششة) ، واذا اخواننا المدرسون

---

(١) يشماغ .

المسلمون ، يدخنون لا دين ولا مجاملة ولا قوة ارادة ... ولا شيء في الدنيا اسمه الحياء .

واذا المجاهرة بالعصيان سنة متبعة و (موضة) شـــائعة ، واذا اكثر الشبان ، أعني من عرفت منهم ، لم يدرسوا الاسلام ، وما لهم به صلة وثيقة ، بل انهم ليقربون من الالحاد ، ويحبذونه ، ويتمنون لو سار العراق على هذه الطريق العوجاء التي سار عليها جيرانه الاتراك ، والتي تؤدي به الى الهاوية .. لما وضع في نفوسهم المدرسون ، الذين تخرج اكثرهم في الكلية الاميركية ، من بغض الدين ، والزهد فيه ، وما يشبه ذلك من المباديء الخبيثة التي أنشئت لأجلها هذه الكلية وسائر المدارس الاجنبية ، بلا استثناء[1] !

وإذا هناك داء دويّ فتاك ، اذا لم تنتبه له البقية الباقية من علماء المسلمين ، الذين يعرفون الاسلام ويغارون عليه ويعلمون أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض من فروض الدين ، وأصل من أصوله ، وان المسلمين آثمون اذا هم تخلوا عنه جميعاً ، ولم تكن منهم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر – أقول : اذا لم ينتبه هؤلاء الى هذه الحالة ، ويعالجوهـــا بالحكمة وبالموعظة الحسنة ، وبالردع وبالحزم ، اوشك ان يمضي الوقت ، ويمشي هؤلاء المسلمون الباقون في طريقهم ، ولا يبقى في العراق عالم ، فينصب الناس علماء جهالاً ، فيفتون بغير علم ، فيَضلون ويُضلون ...

(١) يجب على كل شاب مسلم ان يقرأ كتاب (التبشير والاستعمار) .

وأحسب الوقت كاد يمضي ، واظن ان الظفر قد تم في العراق لهذه الفئة الملحدة الرعناء[1] . وإلا فما بالنا نقرأ في صدر جريدة من اكبر جرائد العراق ، مقالات حشوها الطيش والسخف والكذب والمراء ، مقالات كتبها صاحبها لا برأسه ويده ، بل فكر فيها بانفه وكتبها بخنصر رجله ، يدعو فيها الى الحياة التي يريدها ... وما هـذه الحياة علماً ولا مجداً ولا صناعة ، فما يبالي بشيء من هذا ، ولا يفهمه ولا يصل اليه ادراكه ، ولكن هـذه الحياة ... انشاء المراقص والخمارات ، وفتح المواخير في المنازل والاوتيلات ، ولبس القبعات ، وما الى هذا ، مما يعرفه اهل هذا الفن الداعر المومس ... الخبيث !

وإلا فما لهؤلاء المفطرين ، لا يجدون من يقول لهم كلمة ، او يمنعهم ، وما لهم - خيب الله آمالهم ، وأدنى آجالهم - جامحون في طريقهم ، فعل الدابة الحرون لا رادع ولا مانع ؟

وهل من العلم والحضارة ان يتجرد المرء من دينه ، ويركب سبيل الشهوات ، ويتخطى حدود الشرف والاخلاق . اذا كانت هـذه هي الحضـارة ، وكان هذا هو العلم ، فلعنة الله عليهما وعلى من يدعو اليهما .

اننا قوم لهم دين ، ولهم كتاب ، اتبعه اجدادهم ، فنجحوا وأفلحوا ، وملكوا زمام الكون ، ولا سبيل لنا الى الفلاح إلا باتباع الدين ، وهؤلاء

---

(١) نشأ في العراق اليوم من ناشئة الشباب قوم اعز الله بهم دينه ، ونصر شريعته ، واعلى كلمته ، وهذه علامة من العلامات ، على ان يحفظ هـذا الدين ، وان العاقبة للمتقين .

الذين يقولون بالأبيك ، وينكرون جامعة الدين ، يتكلمون بما لا يفهمون، ويعرفون بما لا يعرفون ، لانهم لم يدرسوا الدين ، ولم يطلعوا على أسسه وأحكامه ، ولم يدروا ما هو ، وإنما يتكلمون على الظن ، كمن يشهد بالله ان فلاناً لص سارق ، او كاذب محتال ، وهو لم يعرف هذا (الفلان) ولم يلقه ، ولم يربطه به سبب من الأسباب ، أو يتكلم عن مدينة من المدن ويصف شوارعها وسوقها ، وهو لم يرها ، ولم يقرأ عنها ، ولم ينظر مصورها ، ولا سمع خبرها ، فلا يغترن أحد بما يقول هؤلاء ، فما لكلامهم قيمة إلا إذا درسوا وبحثوا وتكلموا عن فهم ... وإلا فهم أهون من أن يصغى اليهم .

وانظروا بالله يا أيها المنصفون ... هـذا الصيام ، أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ ، وكتب العلماء في أحكامه ومزاياه وفوائده ، مئات بل ألوفاً من الصحف نشرت في الشرق والغرب ، في القديم والحديث ، فيأتي شاب احمق غرّ جاهل ، فلا ينظر فيما قالوا ولا ما كتبوا ، ثم يأخذ لنفسه الحق في ان ينكر فائدة الصيـام ، ويرد على الله ورسوله والائمة والعالمين من غير بحث ولا فهم ولا هدى ولا صراط مستقيم؟

فأي فائدة وأي قيمة لهذا المقال ؟

ومثل الصيام الصلاة وسـائر أحكام الدين . فأما أن يبين لنا هؤلاء المجددون ، أو المجردون ، على حد تعبير الكاتب الكبير محب الدين الخطيب ـ بالبحث الصحيح ، والحجة الدامغة ؛ ان أوامر الدين ، من صلاة وصيام وحج . ونواهيه من ردع عن الكذب والخيانة والزنا واللواطة ، اما أن يبينوا أنها شر وضرر ، وان ترك الصـلاة والصيام والحج خير ، او

أن الكذب والزنا والسرقة هي الخير والفائدة ، واما أن يعترفوا بانها خير ونفع ، ولكنهم قوم كسالى أو مقصرون او انهم يحبون الشر ، وأما أن يتبعوا سبيل الدين ، ويكونوا مسلمين صـادقين ، لا مسلمين جغرافيين .

إن هؤلاء المجددين ليسوا إلا مقلدين بلا بصـيرة ولا اطلاع ، مقلدين للافرنج ، واني أناقش كثيرين منهم فألعب بهم وأسخر منهم ، اعمد الى اللفظة أو الحكمة من حكم علمائنا فأقولها لهم وأنسبها الى صاحبها العالم المسلم ، فيهزؤون ويضحكون ، كأني قلت لهم نكتة من نكات جحا ، فآخذ اللفظة مثلها في معناها او التي أقل منها ، لعظيم من عظماء الغرب ، فيطأطئون الرؤوس ، ويسمعون ويعجبون .

لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يعرفون الحسن من السيء . ولكن يعرفون ان هـذا غربي فهو حسن ، ولو كان الرقص والزنا والشيوعية والاباحية والانتحار ، والموت الاحمر ، والبلاء الازرق ، والعيش الاسود ... وان هذا شرقي ، او على الاصح اسلامي فهو قبيح ولو كان الصلاة والصوم والصدق والمروءة والجد والعلم والحياة .

وأنا لا أتمنى شيئاً ما أتمنى أن أجد ملحداً واحداً ، أو مجدداً يستطيع أن يناقش بالحجة والبرهان ، ويعرف شيئاً غير الهزء والسخرية والكلام الفارغ ، والتقليد الاعور ، ولكني لم أجد الى اليوم إلا ببغاوات تعيد منطق اوربا العقيم .

أقول العقيم ، لان العلماء من أهل اوربا لا يزالون بخير ، ولا يزالون صادقين مخلصين ، ما بحثوا عن غير الاسلام ، فان بحثوا عن

الاسلام ، فانما هو الخلط والكذب وتحكيم الهوى لا العقل ، والمصلحة لا الحقيقة ، يضعون لنا الديناميت ، ثم يأتي هؤلاء المغفلون ، فيقولون، هاكم هذه الاحجار ابنوا بها صرح حياتكم .

ان هذه ديناميت يا مجانين !

★ ★ ★

استغفر الله فما أقول ان بغداد قد انفردت بهؤلاء المجددين المقلدين تقليد القرد ، الذي يفخرون بان نسبتهم اليه ، كما نفخر نحن أبناء آدم بنسبتنا الى آدم النبي الكريم - ولكن أقول : ان مثل هؤلاء موجود (وقد رأيته) في الشام ومصر ، ورأيته في مكة والمدينة ، ولكن في الشام ومصر جبهات اسلامية قوية يقظة ساهرة ، ترد كل سهم في كبد مرسله . في مصر الفتح وما ولد في دار الفتح ، وبسبب الفتح من جمعيات الشبان المسلمين والهداية ، وفي الشام الجمعيات الاسلامية الكثيرة ، المسلمون الغيُر ، وفيها جماعة الهداية الاسلامية قائمون بالمرصاد لكل من يريد بالاسلام شراً ، وفي الحجاز حكومة مسلمة تقيم حدود الله ، وتتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأين الجبهات الاسلامية في بغداد ؟

اني أسأل سؤال مستخبر لا سؤال منكر ، وقد سمعت بجمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ؛ ولكني لم أرها بل رأيت

الرجل الذي ملأ أنفي اليوم بدخان سيكارته ، ورأيت زملاءنا المدرسين الذين لم يدروا أن في الدنيا رمضان ؛ ورأيت الطلاب الذين كادوا يتساقون مع هذا التيار الملحد ، ورأيت المســاجد الخالية ، ورأيت البدع الفاشية ؟

رأيت هذا كله ؛ ولم أر الجمعيات الاســلامية ؛ فأين هي ؟

أرجو ألا أعدم الجواب .

• • •

الذكرى والتاريخ

بغداد في يوم غازي

كتبت سنة ١٩٣٩

أما رثاء الفقيد ، وبيان جلال الرزء فيه ، ومبلغ الحزن عليه ، فتلك أمور كبرت عن أن يحيط بها (نظم من الشعر أو نثر من الخطب) وبعد منالها عن كاتب مثلي ، قصير القامة واليدين ، فليكن همي في أن أروي (مارأيت وما سمعت) .

ولقد رأيت عجباً ، وسمعت أعجب منه ، وشاهدت أحوالاً ربما ظنها القراء الذين هم في غير بغداد مبالغة من نسج الخيال ، ولكن الله يعلم ، وأهل بغداد يشهدون ، أن الذي أقوله حق كله ، وأني ما زدت فيه ، ولكن نقصت منه ، وأني لو ذهبت أستزيد فيه ما استطعت ، ولا بقي للخيال بعد الذي كان مجال .

والذي رأيت أني نزلت من (الأعظمية) مبكراً على عادتي ، فلم أر على الطريق ما انكر ، إلا حركة عند (البلاط) ما القيت لها

بالا ، حتى إذا شارفت المدرسة (ومدرستنا في ظاهر بغداد ، قريبة من باب المعظم) رأيت طائفة من الطلاب مجتمعين ، يتهامسون ، ولكن الوجوه غير الوجوه ، فلما أبصروني أسرعوا إليّ يسألونني عن (الحادثة) ؟

فقلت وأنا خالي البال : أي حادثة ؟ اني ما سمعت بعد بشيء !

قالوا : لقد شاع في البلد أن الملك ...

فاضطربت وتوقعت أن اسمع عنه نبأ لا يسر ، ولقد أحببت الملك غازياً منذ شهور[1] خلت ، حباً شديداً ، لم أكن أحبه من قبل مثله ، وصرت أرى فيه معقد الأمل ، وباب الرجاء .

فلما قال التلميذ ما قال ، خفق قلبي ، من توقع المكروه ، وحب الاستطلاع ، وروعة المفاجأة ، وما يصيب المرء في العادة في موقف مثل هذا ، وصحت بالولد أسأله أن ، ما للملك ؟

وبالغت في الصياح حتى روعته ، وأثرت أحزانه ، فقال متعثراً يجر الحروف من فيه جراً :

ـ يقولون : انه ... قد مات !

فقلت : أعوذ بالله . اسكت ويحك ، ان هـذا كذب فلا تنطق به ...

---

(١) صنع غازي قبل موته ما ادخل محبته على كل قلب ، وجعله صديقاً لكل عربي .

وأسرعت الى المدرسة والطلاب معي ، وأنا أرجو وهم يرجون أن يكون الخبر كذباً .

ولبث بعض الطلاب قائمين على الطريق ، ينتظرون مرور الملك كما يمر كل يوم ... فلما بلغنا المدرسة ، وجدنا كل من كان فيها من مدرسين وطلاب ، قد سمعوا الذي سمعنا ، وهم بين مصدق ومكذب .

ومرت ساعة ، ونحن على هذه الحال من القلق ، نسأل كل آت فلا نلقى عنده جواباً ، ونستخبر الهاتف (التلفون) فلا نسمع خبراً ، ثم أبصرنا علم الثكنة العسكرية التي أمامنا قد نكس ، وجاءنا الأمر بتنكيس العلم ، وجمع الطلاب في غداة الغد للتشييع ..

فعلمنا أن الناعي قد صدق ، وأن الأمل قد خاب !

. . .

وخرج المدير ، وهو الرجل القوي ، المكتمل الرجولة ، ليعلن الأمر فما تمالك نفسه ان بكى ، وهو ينعي لشباب (الغربية المتوسطة) سيد شباب العرب ، وما أمسك الطلاب أنفسهم أن يصيحوا (وهم ثمانمئة شاب يعدون مثال النظام) صيحة واحدة ، وان يبكوا بنحيب وعويل ، وأن يزق بعضهم ثيابه ، وان يغمى على بعض . وما أكتم القاريء اني حسبت ذلك رياء وتصنعاً ، وكرهته أول الأمر ، واشمأزت منه نفسي ، ولكني ما لبثت ان أيقنت انه حق وصدق ، وان منشأه هذا الحب العجيب الذي نما في قلوبهم من شهور فقط للملك الجندي ، وهذا الحزن الطاغي على وفاته الفاجعة ...

وخرج الطـلاب بعد ذلك ، وخرجت على الأثر ، فما دنوت من (باب المعظم) ، حتى سمعت نواح النســـاء ونحيبهن ، ورأيت الميدان كله ممتلئاً بالناس ، يتدافعون ويستبقون البلاط ، باكين مفجوعين .

مشهد للحزن ما أحسب ان اروع منه يكون ، فخـــالفت الجماهير ، وقصدت شارع الرشيد ، فلم ابلغ (الصابونية) حتى رأيت مئات من النساء تحكي ثيابهن ومظاهرهن الغنى والحشمة ، وهي ينشدن شعراً عامياً ، او شبه شعر ، ما فهمته ولكني تبينت فيه ذكر غازي ، وشبابه الغض ، وذكر الموت .. وكلما قلن بيتاً لطمن وجوههن ، وبكين بحرقة وألم فما رآهن أحد إلا بكى أشد بكاء . .

ورأيت من بعدُ آلافاً من الناس ، قد حملوا شاعراً عامياً ، فهو يقرأ لهم شعراً كله تفجع وألم ، وهم يلطمون ويضربون صدورهم ، أو يشيرون باللطم . فلم أطق المسير ، ولا الشهود ، فملت الى (الثانوية) وكانت خالية مقفرة ، وعلى بابها علمان متشحان بالسواد ، فغادرتها أفتش عن أخي أنور العطار فما هي حتى جمعني الله به ، فقلت له :

ان المسير في شارع الرشيد مستحيل ، والصبر على رؤية هذه المواكب الباكية أشد استحالة ، وحسبنا ما في نفوسنـــا من الالم ، فهلم بنا الى الدار (في الكرخ) فانهـــا أهدأ ، ورأى ما رأيت فسرنا نؤم الجسر .

وكان اليوم عاصفاً عنيفاً ، والنهر مضطرباً مرعباً ، كأن الطبيعة

قد روعها من النبأ ما روعنا ، ففقدت هي الاخرى اتزانها وهدوءها ، فما ظننا والله إلا انه الجسر منقطع بنا ، لما رأيناه من اضطرابه واهتزازه ، ولعب الرياح والمياه بالعوامات التي يقوم عليها ، ولكن الله سلم ، فبلغنا الكرخ .

واذا بالكرخ قد نشرت فيه الاعلام ، أعلام (السباية) السود ، ودقت طبول المأتم ، وخرج أهلوهــا على بكرة أبيهم ، مواكب ، مواكب :

النساء ينحن ويلطمن الوجوه ، والرجال ينشــدون ويضربون الصدور ، وقد تعروا وتكشفوا فعل المتهيىء للصراع ، حتى رأيت الصدور وهي من الاحمرار كأنما هي دامية . والاطفــال ، يا الله ما فعل الاطفال .

لقد تعروا مثل الرجال ، وطفقوا يضربون صدوراً ، علم الله انها ما تحمل الضرب ولا تطيقه ...

وكانت المواكب في كل شــارع وفي كل زقاق ، فكلما تركنا واحداً منها اصطدمنا بآخر ، حتى أزمعنا آخر الامر ان نعود الى جانب الرصافة من الجسر الآخر ، فما بلغناهــا حتى رأينا فيها ما أنسانا فعل اهل الكرخ ، وكان كل موكب يحمل صورة الملك الشــاب مجللة بالسواد ، وينشد أشعاراً لم أحفظها ، ولكني فهمت منها كثيراً ، فمما فهمت مقالة قوم :

الله اكبر ، يا عرب ، غازي انفقد من داره
وامتزت اركان السما ، من صدمة السيـــاره

وقول قوم ما معناه :

قولوا لفيصل في القبر يستقبـــل وليـــده

في أشعار هذا سبيلها .

ولعل القراء لايدركون قوتها ووزنها لاني لم أحسن كتابتها ونقلها ، ولكنهم لو سمعوها من أفواه أصحابها ، ورأوا بكاءهم ، وشاهدوا صدورهم المحمرة ، لعرفوا أي شيء هي ، ولعلموا أن بغداد تعرف كيف تفرح ، وكيف تغضب ، وكيف تحزن !

ومن أعجب ماشاهدت فتيات المدارس . وهن يلطمن وجوهاً يؤذيها المس ، ويدميها النسيم ، لا يشفقن على أنفسهن ، ولا يفتأن ما سرن يَبكين ويُبكين . ويا ليتني فهمت ما كن يقلن فانه أشجى وأعجب مما كان الرجال يقولون ..

وبقيت المدينة على هذه الحال الى صباح اليوم التالي ، الى ساعة التشييع التي اعلن العجز عن وصفها .

فلما تم الدفن ، وأودع الثرى الملك الشـــاب ، الذي كان يفيض قوة وحياة ، وحومت الطيارات الوطنية تحمل شارات الحزن السود الطوال ، وانطلقت المدافع تعلن انتهـــاء الدفن ، وأيقن الناس ان المصيبة قد تمت ، وأن الرجاء قد امحى ، أفاقوا كمن يفيق من نومة

مزعجة رأى فيها الحلم المروع ، فيرى الواقع أشد روعة ، فأسلموا الامر الى الله ، وصمتت هذه الالسنة التي طالما أنشدت ورثت وتفجعت ، وجفت هذه الدموع التي طالما جرت وذرفت ، وانفضت هـــذه الجموع واجمة ما فيها من يتكلم أو ينبس ، وفي القلوب نيران تتأجج ، وبين الاضالع اللهيب يستعر .

ولم تسكت آخر طلقة من طلقات المدافع التسع والتسعين حتى عم المدينة صمت عميق ، وغدت كأنها قبر واحد ، هو قبر غازي .

* * *

للذكرى والتاريخ

يا غازي ... عليك رحمة الله !

أذيعت من محطة الاذاعة العراقية يوم مات غازي

عليك رحمة الله (يا غازي) الحبيب[1] .

يا فخر الشباب ، يا من لم يمتع بالشباب !

يا سيد العرب ، يا من روع فقده العرب .

يا بدر العراق الآفل ، يا أمل الشام الذاهب ، يا دنيا من الفتوة والبطولة والنبل ، طوتها كف الموت (يا غازي) عليك رحمة الله !

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا ، وأنت عوننا على الدهر الظالم ، والعدو الغاشم ، أفأقوم اليوم لأرثيك يا أملنا ويا ملاذنا ؟

أأقف على قبرك الطري مودعاً باكيا ، وقد كنت أقف على بابك العالي مستغيثاً ومستصرخا !

---

(1) قد يظن بعض القراء الآن اني كنت من اشياع غازي ، او كانت لي به صلة ، ولا والله ما كان لي به او بغيره اتصال ، وما رثيته هذا الرثاء ، الا لانه صنع قبل ان يموت ما جعله صديق كل محب للعرب وكل عدو للانكليز .

أأخاطبك اليوم من وراء القبر وقد كنت بالأمس ملء الكون حياة وقوة وشبابا ؟

ليتني ما عشت حتى أرى هذا اليوم !

ليت يدي ما طاوعتني حتى أكتب هذا المقال !

ليتني ما بقيت حتى أرثيك يا غازي !

(يا غازي) جل المصاب وما لنا فيه يدان .

(يا غازي) عظم الخطب وضاقت الحيلة .

(يا غازي) لو كان يفتدى ميت لفداك العرب بأنفسهم !

(يا غازي) قد فقدناك فعليك رحمة الله !

على شبابك الكامل ، على بطولتك النادرة ، على أيامك الحلوة ، على ذكرياتك الخالدة ، على روحك (يا غازي) رحمة الله !

. . .

أفي عشرة أيام يدور الفلك ، وتتبدل الدنيا ، ويستحيل عيد مولد الملك الشاب الحبيب ، الى مأتم الملك الشاب الحبيب ؟

أفي عشرة أيام تمر دنيا كاملة ، تبدأ بأعظم عيد عرفه هذا الشعب هو عيد ميلاد (غازي) ، وتختم بأجلّ مصاب رآه ، وهو المصاب (بغازي) ؟

من كان يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب في (٢١ آذار) يوم الربيع الطلق ، ويوم (غازي) الذي كان أمرع من الربيع

وأبهى ، أن الفجيعة الكبرى كامنة في الغد القريب ، وأن هذا الشعب سيلطم وجهه ، ويمزق ثوبه حزنا على (غازي) ؟

أأحسست بالغد القريب فذهبت تستعجل القدر لتهيىء لأمتك كل شيء قبل أن تمضي ، فعرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد لها القوة والايد ، وفتحت السدة يوم الاربعاء لتضمن لها الحضـــارة والخصب ، وعطفت على آلام سورية لتنشىء لها الوحدة والعزة ، وأجريت الخيل يوم الجمعة لتعلم وليدك الصغير كيف يكون فارساً قبل أوانه ، كأنك شعرت أنا سنفجع فيك قبل الاوان ؟

لقـــد كنتُ قريباً منك يوم (عرض الخيل) ، فرأيت في عينيك وأنت تراقب ابنك ، معنى من معـــاني الغيب ، ولكني ما أدركته .

ومن أين يخطر على بالي أنك كنت تودعه وتفكر فيه كيف يفقد أباه ويجد الملك ، فلا يدري ما الملك ولا يني ينادي : بابا ...؟

من كان يظن أن الملك الشاب ابن الخمس والعشرين يموت ؟

من كان يظن أن هـــذه الهبّة الكبرى إنما هي استعجال للقدر ، وأن هذه الأيام العشرة إنما هي الخاتمة البـــارعة لتلك الحيـاة البليغة .. ؟

ولكن هل تم كل شيء حتى تستريح (يا غازي) ؟

لقد وعدت (وفد العروة) أن تشرفهم بلقائك وما عهدناك أخلفت قبل اليوم وعداً .

لقد كمل الجسر العظيم الذي لم ينشأ مثله في عهد الرشيد والمأمون ، فأين أنت لتفتحه بيدك وتخطو فيه أول خطوة ؟

لقـــد وصل الخط الحديدي الى الموصـل أفلا تفضلت فرعيته وافتتحته ؟

لقد أجمعت أمة الشام على نصبك ملكاً ، وتسليمك عرش أبيك على رغم الظـــالمين ، فأين أنت لتسكن قصر أبيك في دمشق وتحتل عرشه فيها ؟

لقد تهيأ العرب ليمشوا تحت لوائك الى قمم المجد وذرى العظمة ، فتقدم يا قائد العرب يا مليك ؟

وأين قائد العرب ؟ أين المليك ؟

لقد مشى الى رحمة الله . فإنا لله وإنا اليه راجعون !

. . .

أحين اشتدت المعضلة ، واستحكم الأمر ، ورجوناك للخطب لا يرجى فيه إلا أنت ..؟

أحين تعلقت بك الآمال ، وأقبلت عليك القلوب ، وغدوت حبيب الشعب المفدّى ..؟

أحين تمت بك الافراح ، وكادت تتحقق بك المنى ..؟

اللهم لا اعتراض ...

اللهم لقد حرمت كل شيخ منا ابنه ، وكل فتى أخاه ، وكل صبي أباه ، حين أخذت سيدنا وحبيبنا وملكنا غازي !

اللهم فارزقنا الصبر ، وأين منا الصبر ؟

. . .

(يا غازي) ارفع رأسك ساعة وانظر الى شعبك .

إنه يحار ماذا يصنع ، فهو يسكت واجماً ، ثم يثور نادباً ، ثم يستفزه الالم ، فيقرع الطبول ، ويرقص رقصة اليأس .

إنه يحمل صورتك مجللة بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكي ، على أنهم حملوا صورتك في الافئدة ، ونقشوها على صفحات النفوس ، فأنت من كل قلب حبته ، ومن كل عين سوادها

اسمك آهة على كل لسان ، ودمعة في كل مقلة ، وخفقة في كل فؤاد ، ومناحة في كل بيت عربي .

فيا غازي ، عليك رحمة الله !

. . .

يا غازي ! لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة ، فجعل يطلب مني بإلحاح ويشير بيديه ، فأعطيته فلسين فألقاهما في وجهي ، فزدتهما فرمى الاربعة ، فتفهمت قصده ، فإذا هو يطلب شارة سوداء ، كالتي

أضعها في صدري ، ليعلن بها الحزن عليك ، فدفعتها اليه وهو يذكر اسمك ويبكي !

لقد رأيت عجوزاً تنظر الى رسمك الجلل بالسواد وتبكي ، كأنما تبكي فيك ولدهـا الوحيد ، وهي تظن أنه ما يراها من أحد إلا الله !

لقد أغمي على كثير من الطلاب والطـالبات ، لما سقط عليهم الخبر الاسود .

لقد احمرت من اللطم صدور وخدود ، يؤذيها مس النسيم !

يا غازي ، يا أيها الفتى القوي ، يا أيها الفارس الطيار ، ألم تعد تستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى ، لترى ما صنع شعبك ؟

لقد متّ من القضـاء مرة ، ولكنا متنا من الحزن ألف مرة ، وسنموت من الحزن الف مرة ، ولن ننساك (يا غازي) ، مثلك ما ينسى !

. . .

الذي نادى بك ملكاً منذ أيام ، وكنت أنت أمله لم يبق
يبكي فيك اليوم كل شهيد من شهدائه . إنه كان يحبس
فلمن يحبس الدمع من بعدك ؟

التي كانت تتلقى ابنهـا القتيل وهي تهتف باسمك ،

الى قطعة نشرتها في جريدة البلاد قبل ذلك بأيام استغيث فيها ، فكان جواب
ة تنتصر فيها للشام ما رأى الرائي مثلها !

لم يبق لها من تهتف باسمه من بعـــدك !

(يا غازي) من لاطفال الشام ، من لنسائه ؟

من لضعافه الذين يسومهم القوي ألوان الخسف ؟

(يا غازي) من لهم ، وباسم من يهتفون من بعدك ؟

(يا غازي) ما تيتم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكن فقدك يتم كل عربي .

ما تيتم فيصل الصغير أبداً ، ما تيتم ، إن كل عربي له أب وصديق ، إن له في قلب كل عربي مكاناً !

أحقيقة أنهم أودعوك تحت الثرى ؟

(يا غازي) إني والله ما أصدق أنك مت !

(يا غازي) لقد سمعت الخبر فكذبته ، ولعنت ناقله وانتظرت أن أراك طالعاً علينا ، تمرّ مرّ النسيم الناعش ، مرّ الرجاء الحلو بخيال الآيس الحزين ، تحيي شعبك ، وتسبغ عليه القوة والحياة بابتســامتك المنيرة وفتوتك الباسلة .

وطفقت أراقب الساعة أحسب الوقت فلم تمر ، فشككت ولكني لم أصدق ما قال المرجفون .

ورأيت النساء يبكين ويندبن ، فبكيت والله ، ولكني لم أصدق ما قال المرجفون .

وشـــاهدت بغداد وملء شوارعها البكاء والحسرة والندب ، ولبثت

أشك ولبثت أرجو ، حتى سمعت المدافع ووعيت الصيحة ، فلم يبق شك ولم يبق رجاء .

لقد تحقق النبأ فواحسرتاه ... لن نراك (يا غازي) طالعاً علينا .

لن نبصر من بعد موكبك ولا ابتسامتك ولا تحيتك ، فيا غازي في ذمة الله وأمانه ، يا غازي عليك رحمة الله !

. . .

يا أهل بغداد !

مات غازي فابكوا واندبوا ، فعلى مثل غازي يحلو الندب والبكاء .

يا أهل بغداد !

ما فجعتم فيه وحدكم ، ولكنها فجيعة العرب بسيد العرب . لقد كان منار رجائنا (معشر الشاميين) فانطفأ المنار .

لقد كان لنا مناط الأمل . لقد كان لنا كل شيء ... فيــــا أهل بغداد كلنا في المصيبة سواء .

وعلى غازي رحمة الله والسلام .

. . .

من دمشق الى « دير الزور » ..

كتبت سنة ١٩٣٩

اذا صح ان يكون في المدن سفراء ، فمدينة الدير سفارة عراقية في الارض الشامية ، وما دخلت الدير الا ذكرتني العراق ، بمظهرها ومخبرها ، ولهجة اهلها – وما دخلت الموصل الا ذكرتني حلب . لذلك اثبت هذا المقال في كتاب (بغداد) .

الى دير الزور[1] ...

استعدوا يا سادة ، فقد أزف الرحيل ، وشدت الأحداج ، فودعوا الأحبة والصحاب إن كنتم تطيقون الوداع ، وخذوا طريقكم الى (المرجة) ففيها الموعد الفجر .

وأسرعوا لايشغلكم جمال الغداة ، ولا سحر السَحَر ، وإن ملأ السماء والأرض والنفس خشعة وفرحة وبهاء ، فحرام على ذي الاعمال ، أن يفتنه عنها الجمال ...

---

(١) نقلت اليها مدرساً في ثانويتها سنة ١٩٣٩ ، اثر حادث في المدرسة ، في حفلة اقيمت في ذكرى مولد النبي فاعتدي فيها على النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان على يدي نصرة الحق وخزي المعتدي .

ها نحن أولاء في (المرجة) ، وها هو ذا صوت المؤذن يمشي في الفضاء مشى البرء في الاجسام ، والطرب في الاعصاب ، فيكون لهذه الدنيا نوراً وطهراً وعطراً ، وها نحن أولاء نصلّي الصبح في (جامع يلبُغا) الذي سرق نصفه العثمانيون فجعلوه مدرسة ، كأن الارض قد ضاقت بالمدرسة حتى ما يتسع لها إلا الجامع .

ولكن اللصوص لم يكونوا حذاقاً ، ولم يستطيعوا طمس الآثار، فنسوا (المئذنة) لم يسرقوهـا فلبثت قائمة تشهد عليهم ، كشهادة (منـارة سوق الغزل) على أهل بغداد ، أنهم سرقوا (المسجد الجـامع) الذي كان قطب الارض ، وأكلوه ، وادعوا أنهم ما رأوه ...

وها نحن أولاء نخرج فنرى السيارة وعليها الاحمال ، ولكن ما لها لا تمشي ؟

ألم يأن الأوان ؟ ألم يؤكدوا لنا أن الرحلة الفجر ؟ لقد مضت نصف ساعة ، ومضت ساعة ، وملأت الشمس الدنيا ، وأمتع الضحى ، وهي واقفـة ، ترقب أحد البكوات حتى يصحو وتفرّك الجارية رجليه ويغتسل ويأكل ويلبس ويجيء متبختراً . . . فلماذا منعونا نحن المنام ، وألزمونا الحضور في الغلس ، في برد كانون ، وقرّ الليل ؟

وما هذه الخصومات والمعارك ، وهـذه الالفاظ الوسخة التي يقذف السائق ومعاونوه في وجوه الركاب ، لأنهم طـالبوا بحقهم الظالم ؟

وما لشركة (نِرن) الانكليزية تسير سياراتها كما تسير عقارب الساعة ، لا يسبق عقرب ولا يتأخر ولا يقفه شيء ؟

أكتب علينـــا أن نظل أبداً أهل خلف في المواعيد ، وكذب في الاحاديث ، وفوضى في المعيشة ، لا نحن اتبعنا ديننا ، دين الصدق والنظام ، ولا نحن قلدنا الاوروبيين في فضائلهم ؟ ما قلدناهم إلا في الرذائل والموبقات !

• • •

لقد دنا المسير ، و (رغت)[1] السيارات ، فاستنجدوا بقرائحكم لتسعفكم بالقول المحلّى واللفظ المعسول ، واعتصروا العيون واستمطروها الدمع ، فما يحلو بغير الدموع الوداع ، وما وصفه شاعر إلا (زعم...) أنه بكى ، فكأن الشعراء ... إذا أزمعوا وداعاً وضعوا البصـــل في عيونهم ... وإلا فكيف تجود بالدمع عند كل طلب كأنها (حنفيّات) الحمام ، أو كأنها مُقل الحِسان ؟

وخذوا مقاعدكم قبل أن يشتد الزحام . ولكن من أين ندخل وهذه السلال والصرر والحقائب بين الارجل ووسط الممرات ؟

وما هذا الضيق في المقاعد ؟ هل هي رحلة دقائق من دمشق الى دمّر ، او من مصر الى المعادي ؟

انها رحلة يوم كامل بليله واكثر نهـــاره أفنمضيه محبوسين في هذا

---

(١) الرغاء للابل .

الصندوق ، مقيدين بالاصفاد ، لا نستطيع أن نحرك يداً ، ولا نمد ساقاً ، ولا نتلفت ؟

أنقاوم الشركات الاجنبية ونحاربها بمثل هذه السيارات ؟

يا قوم إنكم بمثل هذا تجعلون الناس يترضون عن الاجانب ، ويلعنون لاجلكم كل شيء وطني !

. . .

لقد جرت السيارة وباسم الله مجراها ومرساها ، ها هي ذي تخترق شارع فؤاد الاول ، وتقطع شارع بغداد أفخم شوارع دمشق وأطولها ، الذي فتح من ربع قرن ولم يبن فيه إلا خمس بنايات ، لان البلدية أرادت عمران دمشق ، فوضعت للبناء فيه شروطاً لا يمكن معها البناء ، إلا إذا قامت حرب عالمية ثالثة ، وصار كل الشاميين لصوصاً أي (أغنياء حرب) ...

لقد بلغنا (جسر تورا) فودعنا دمشق بنظرة أودعوهـا حبة القلب ، وقرارة اللب ، فما تلقون إذا فارقتم دمشق مثل دمشق ، وأين ؟

أين مثل فتونها وسحرها ؟ وأين مثل نقاها وطهرها ؟ أين قبة تنطح النجم كقبتها ؟ أين في الارض غوطة كغوطتها ؟ أين نهر يسيل شعراً وذهباً كبرداها ؟

أين مثل ربوتها وشاذروانها ، ومزّتها وميزانها ؟

أين في الدنيا ربيع كربيعها ، وزهر كزهرها ، وثمر كثمرها ، وكروم ككرومها ؟

تزوّدوا منهـا بالنظرات تكن لكم في طريقكم زاداً ، وفي غربتكم أنساً ...

. . .

هذه (دوما) قصبة الغوطة فيها خمسة وعشرون الف ساكن قلّ فيهم من يتفرغ للعناية بدار لذلك ترون دورهم زريّة منخفضة السقوف ، ضيقة الابواب ، وقل فيهم من يعتني بثوب أو يحرص على علم ، ما لهم هم إلا الزراعة فهم أقدر خلق الله عليها ، واصبرهم على مكارهها ، لانهم يشتغلون لانفسهم وذراريهم ، لا (لا باك) من البكوات ، ولا لخواجة من الخواجات ، وقلّ فيهم من لا يملك قطعة من الارض ولو صغرت ، يعيش بها ولها ويموت عنها ، ليس فيهم أسرة يستعبدها الملاك هذا الاستعباد (الحر) . ويظلمها هذا الظلم (القانوني) .. فينظر اليها كما ينظر الى حميره وأبقاره ، ويعاملها معاملتها ، فيسكنها في مثل زرائبها ، ويطعمها قريباً من طعامها ، ولا يراها أعلى قدراً منها ، يشغلها السنة كلها تكد وتشقى ، لتقدم له ثمن سكرة من سكراته ، أو ليلة (حمراء !) من ليلاته ، تريق عرق جباهها على أقدام عشيقاته ، وتبذل حياتها ابتغاء مرضاته ، ثم لا تنجو من غضباته ونزواته !

إنما أرضهم هم ، وهم أصحابها ، ولذلك ازدهرت وأينعت حتى صارت أجمل أرض في الوجود . فانظروا اليها من حولكم ، الى هذا البحر يموج

بالاشجار ، تتمايل اغصانها ، وتتعانق أفنانها ، تتوجها إذا جاء الربيع ألوان الزهر ، فتكون ابتسامة الزمان على فم الثرى ، وتثقلها اذا حل الصيف أنواع الثمار ، من المشمش عشرين نوعاً ، حبُّه كالتفاح استدارة وبهاء لا كمشمش مصر الذي يشبه في صغره حبَّ الزيتون ، ومن التفاح اربعين نوعاً ، والكمثرى عشرين ، والعنب خمسين نوعاً معدودة عداً ، والدراق والخوخ والجانرك والسفرجل والجوز واللوز والتين والزيتون والتوت أنواع شتى وأشكال .

وإلى السواقي تسعى فيها تحمل الحياة من بردى الى هذه الارض المباركة ، يميد على حوافيها الحور ويرقص الصفصاف ، وتنساب عروق البطيخ والشمام والقثاء والخيار ، وتضحك من حولها حقول القمح ، ومزارع (الخضار ...) .

هذه هي الغوطة : بستان واحد ، مساحته اكثر من ثلاثمئة مليون متر مربع ، متصل الظلال ، متلاقي الاغصان ، كل شبر منه ثروة وجمال ، وكنز لا ينفد على الإنفاق

لقد جازت (السيارة) دوما ، فانظروا اليها فقد كادت تختفي منارانها ، كما اختفت دمشق إلا جبليها الخالدين ، قريعي الدهر ، حليفي الخلود : قبة النسر من الاموي ، وهامة الصخر من قاسيون .

وهذي كروم دوما ، يضل البصر في رجاهـا[1] ويقصر عن مداهـا .

---

(١) الرجا : واحد الارجاء .

فيها (العنب الدوماني) الذي سارت بذكره الركبان ، فمن لم يأكل منه لم يأكل عنباً إلا على المجاز ...

ولكنكم مررتم بالغوطة وكرومها في الشتاء ، فدهشتم وما رأيتم إلا حطبها ، فكيف لو جزتم بها الربيع فشاهدتم البهي من زهرها ، أو سلكتموها في الصيف فجنيتم الشهي من ثمرها ؟

اذن لقلتم : لا رب إلا الله ، ولا بستان إلا الغوطة !

. . .

لم يبق الآن أمامكم الا الصحراء ، ولكن هذه الصحراء كانت يوماً من الايام سهولاً ممرعة ، وكان اكثرها منازل عامرة ، وكانت تفيض بالخيرات وتزخر بالظلال ، ايام الملوك الغرّ الميامين سادة الدنيا ، بني أمية ، الذين حملوا راية الاسلام الى اقصى المشرق والى اقصى المغرب ، من اطراف الصين الى أواسط فرنسا ، فنصبوها على قبة الفلك ، ودعموها بالعدل والنبل والفضل ، فما كانوا فاتحين كالفاتحين ، يغلبون بالقوة ، ويملكون بالسطوة ، فان زالوا زالت آثارهم ، ولكن كانوا مجاهدين ، وكانوا بانين ، وكانوا عبقريين ، فجعلوا هـــذه البلاد كلها اســـلامية عربية الى يوم القيامة . وكان لهم الفضل على كل مسلم ، في هاتيك الاقطار حتى تقوم الساعة .

رحمهم الله ، وغفر لهؤلاء المؤرخين ، الذين حاولوا ان يتقربوا الى اعدائهم ، باطفاء هـــذه الشمس التي بهرت العيون ، فجمعوا غبار الطرق

وجعلوا ينفخون عليها حتى تمزقت صدورهم ، والشمس ساطعة لم تنطفىء . ومن ذا يطفىء نور الشمس في رأد الضحى ؟

غفر الله لهم ، فقد جعلوا هذه المدينة لما نزلوها سيدة المدائن ، ورفعوا قدرها حتى ذلت لها نهاوند ، ودانت قرطبة ، وخضعت سمرقند، وطأطأت لها القسطنطينية ، وأضعنا نحن من بعدهم عزها .

إن الارض تعمر أبداً وبلادنا تمشي الى الخراب .

إنكم ستمرون الليلة على المدينة التي قارعت روما يوم كانت روما عاصمة الأرض ، ونازعتها مجدها وسلطانها ، فلا ترون في مكانها إلا قرية اسمها (تدمر) ، أفرأيتم كيف نمشي الى الوراء ؟

إن ديار الشام التي يسكنها اليوم بساحلها وداخلها ، وشمالها وجنوبها ، خمسة ملايين كان فيها يوماً من الأيام خمسة وعشرون مليوناً[1] . وكان في العراق مدينتان متجاورتان ، في كل منهما مليونان ، وأهل العراق كله اليوم خمسة ملايين . وإن بين هاتين المدينتين اليوم على الطريق جسراً قائماً في الفلاة ، كان تحته نهر اسمه دجيل ملأ الشعراء بذكره الاسماع ، يسقي مدينة اسمها حربى ، زخرت بأخبارها صحف التاريخ ، فمحيت المدينة ، وجف النهر ، ولم يبق إلا جسر قائم في الفلاة .

---

(١) هذا كلام يتناقله الناس وقد كنت اقول به يوم كتبت هذا الفصل ، ولكني تيقنت الآن انه غير صحيح ، وان في الشام اليوم من السكان اكثر مما كان فيها في كل وقت مضى .

وكان في البصرة عشرة آلاف قناة ، فلم يبق فيها اليوم إلا مئة وثمانون قناة .

نعم لقد عدنا الى الوراء ولكن عهد التـأخر قد انقضى .

لقد وقفت القافلة تجمع شتاتها ، وتعد عدتها ، لتمشي في طريق المجد كما مشى الأجداد ..

لقد عرفتنا المصائب في فلسطين والمغرب ومصر والشام ، أن الطريق من هنا : من الشرق . .

من الشرق يطلع فجر الخلاص ، أما الغرب فلا يجيء منه إلا ليل الظلم وسواد الاستعمار ...

هذه حقيقة تدرس في المدارس الأولية ، ولكن في الناس جهلاء لم يتعلموها بعد !

. . .

يا إخواننا . إن هذه السفرة ستعلمكم الصبر .

إنكم ستتحدثون حتى تملوا الحديث ، وتسكتون حتى تكرهوا السكوت ، وتأكلون حتى تعافوا الاكل ، وتجوعون حتى تشتهوا الطعام ، وتنامون حتى تشبعوا من المنام ، وتستيقظون حتى تتمنوا الهجوع ، وأنتم محبوسون في هـذا الصندوق ، مصفدون بالاغلال ، فأين هذا من رحلات الاجداد على الإبل ، يستمتعون بالحرية والانطلاق

ن ؟ تقولون أنكم اختصرتم الزمان ... وماذا في اختصار الزمان ،
إسراع الى القبر ؟

انكم تشكون والسيارة تمشي لكم على الطريق الآهلة ، وأنتم قعود
كلون وتشربون ، ففكروا في بطل الدنيا سيف الله (خالد)
محبه : كيف قطعوا هذه البادية على الإبل لا يمشون على طريق ،
يجدون ماء ولا زاداً كافيا ، والعدو محيط بهم ، فلما وصلوا الى الشام
تسلوا ويمدوا أرجلهم ... ولكنهم نازلوا جنود سيد الكتائب قيصر ،
زعوا منه الظفر ، وأخذوا منه البلاد ، فبقيت خالصة لامة محمد ، لن
غيرهم ابداً ، لا للانكليز ولو غلبوا عليها حيناً ، ولا اليهود ، ولا
كان ...

لئك هم الرجال حقا !

. . .

. فهذي هي الدير ، تبدو مناراتها من وراء البادية ، كما تبدو
، وراء البحر ، فحث الخطى يا أيها السائق ، واسقها (البنزين) ،
سنفر ، ونفد الصبر ، واشتد الشوق ...

لم ما يكون الشوق يوما اذا دنت الخيام من الخيام

هي الدير قد وضحت ، أفلا تحسون أنكم مقبلون على مدينة

عراقية ، أليس لمناراتها رشاقة مآذن بغداد ، وإن لم يكن لها ثوبها المزركش الذي تخطر فيه ، وتاجها الذهبي الذي تميس تحته . أليس فراتهـــا هو الفرات الذي يجري في العراق وإن لم تزن كتفيه الروابي المخضرّة ، ولم يستقم فيـــه النخيل ، ولم تمرح على صفحته الزوارق الشعرية ، ولم يؤكل في القهوات المطلة عليه السمك المسقوف ؟

هذي هي الدير ، فدعوني يا رفاق أفارقكم لاحدث القراء (حديث الدير) ... فان فيهم من لم يسمع من قبل باسمها !

* * *

وداع بغداد

كتبت سنة ١٩٣٩

الوداع يا بغداد .

يا بلد المنصور والرشيد ، والنعمان واحمد ، والكرخي والجنيد ، وأبي نواس والعباس ، ومخارق واسحاق ، ومطيع وحماد .

يا منزل القواد والخلفاء ، والمحدثين والفقهاء ، والزهاد والاتقياء ، والمغنين والشعراء ، والمجّان والظرفاء .

يا مثابة العلم والتقى ، واللهو والفسوق ، والجد والغنى ، والفقر والخمول يا دنيا فيها من كل شي .

الوداع يا دار السلام ، ويا موئل العربية ، ويا قبة الاسلام .

يا بلداً أحببته قبل أن أراه ، وأحببته بعد ما رأيته . . . لقد عشت فيك زمانا مرّ كحلم النائم ، صحوت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق ، فلم أجد منه في يدي إلا لذع الذكرى .

وهل تخلف الاحلام يا بلدُ إلا الاسى والآلام ؟

ولكني على ذلك راضٍ راضٍ فالوداع يا بغـــداد واسلمي على الزمان !

. . .

ودعتها والسيارة تشتد بي الى المحطة تسلك اليها شوارع ذات بهجة وجمال ، شبهتها (والمحطة غايتها) بليالي الحب كلها أنس وحلاوة ، ولكن نهايتهـــا وحشة الوحدة ومرارة الفراق . وعاينت الوداع فأيقنت أني مفارق بغداد عما قليل ، وأني سأتلفت فلا أرى رياضها ولا أرباضها ، ولا أبصر دجلتها ولا نخيلها ، فجرى لساني بقول الاول (وإن من الاقوال ما لا تبلى جدته ولا يمضي زمانه) :

أقول لصاحبي والعيس تهوي   بنـــا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجـــد   فما بعد العشيـة من عرار
شهور قد (مضين) وما شعرنا   بأنصـــاف لهن ولا سرار
وأما ليلهن فخـــير ليل   وأطيب ما يكون من النهار

وجعلت أذكر كم ودعت من احباب ، وكم فارقت من منازل، وكم قطعت قلبي قطعاً نثرتها في ارض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكرى ، ولا ترثي لبائس .

ورأيتني لا أكاد أستقر في بلد حتى تطرحني النوى في آخر ، كنبتة لا تكاد ترسخ في تربة وتمد فيهـــا جذورها حتى تقلع وتنقل الى تربة أخرى .

ورأيت أني دخلت بغداد يوم لم يكن قد جاءها أحد من أصحابي فلبثت فيها وحيداً مستوحشاً ، لا أعرف منها إلا المسجد ، وما كان لمسلم أن يرى نفسه غريباً في بلد فيه مسجد ، ولكنها العاطفة الضعيفة المتهافتة ، فلما ألفتها وصارت بلدي ، وغدا لها في قلبي مكان نفيت عنها ...

دخلنـا كارهين لها فلما ألفناها خرجنا (مكرهينا)

وفكرت في امري متى ألقي رحلي ، ومتى احل حقائبي ؟ وهل كتب عليّ أن اطوف أبداً في البلاد ، واعيش غريباً وحيداً بعيداً عن اهلي وكتبي وصحبي ؟

وهاجت في رأسي الخواطر السود ، وماجت ، حتى لقد رأيت الشوارع الحالية بالزهر صحراء مجدبة ، ورأيت شعاع القمر المضيء مظلماً خابياً .

ومن طوّف تطوافي ، واقل مثلي على بلاد ماله في نفسه صورة ، ولا له فيها صديق ، وفارق اهلاً اليه احبة ، وصحباً عليه كراما ، ومن كانت حاله كحالي ، عرف صدق مقالي !

. . .

وصفر القطار وسار ، وطفقت ألوّح بمنديلي لصديقيّ الاثيرين أنور وحسن[1] ، حتى واراهما عني الظلام ، فنظرت حولي فإذا أنا

(١) انور العطار وحسن القواف .

وحيد في الغربة الفخمة ، لا انيس ولا جليس ، فكرٌ فكري راجعاً الى بغداد .

بغداد ، يا مهد الحب ، يولد الحب على جسرك الذي تحرسه (العيون) ، وينمو في زوارقك ذات الاجنحة البيض التي تخفق كخفقات قلوب راكبيها ، ويشب في كرخك وتحت ظلال نخيلك .

فتشوا ، كم تحت هذا الثرى من بقايا القلوب التي حطمها بسهام (العيون) هذا المخلوق الجبار ، الذي ولد على الجسر شابا ، وغا في الزورق ، واكتهل في الكرخ ، ثم لم يمت لانه من ابناء الخلود .

سلوا ارض بغداد : أعندها قبر من شهداء الغرام؟

سلوا جوّ بغداد : أين النغمات العذاب التي عطرت نسيمه بعطر الجنة ، فهزت قلوبا ، وهاجت عواطف ، واضحكت وابكت ، وأماتت واحيت . هل أضعت ويحك هذه الثروة التي لا تعوض ؟

سلوا الجسر .. يا (جسر بغداد) ان ما بقي من حديثك قد ملأ كتب الادب ، حتى لم يعرف الناس سوقاً للعواطف والافكار والعبر اكبر من جسر بغداد ، فأين سائر اخبارك ؟

كم ضَمَمْتَ ذراعيك على عشيقين فنعما بينهما بلذة الحب ؟

وكم تركت حبيباً ينتظر فلا يرجع بعد الانتظار إلا بالخيبة والاسى !

وكم عطفت على بائس منكود ، واعرضت عن منكود بائس فأريت الاول من مشاهد الحياة ما هوّن عليه ما هو فيه ، وزدت الثاني بؤساً ونكداً .

وكم وعيت من أسرار الحب والبغض ، والفرح والحزن ، والغنى والفقر ، والعزة والذل ، وكل ما تحتوي الحياة وتشمل النفس من ألوان ؟

كم رأيت من حصاد الأدمغة وثمرات القلوب ؟

كم مدت[1] تحت أقدام خليفة كانت تصغي له الدنيـــا إذا قال لأنه ينطق بلسان محمد ، وقائد كانت تخضع له الامم اذا سار لانه يلوّح بسيف محمد ؟

يا (جسر غازي) الجديد ، الماثل العظيم ، أعندك نبأ من ذلك الجسر الذي كان عالماً من العوالم ؟ والذي كان سُرّة الدنيا وقطب رحاها ؟ وكان للجدّ إذا جدّ الجدّ ، وللهزل اذا جاز الهزل . فحوى الجد من أساسه ، وجمع المتعة من اطرافها ؟

❁ ❁ ❁

وهـــذه المئذنة المنحنية الماثلة في (سوق الغزل) تنظر بعيني أم ثكلى . . . سلوهـــا أين مسجدها الذي كان يضيق على سعته بالمصلين ، حتى تمتد الصفوف الى الشـــارع ثم تتالى حتى تبلغ النهر[2] ؟

أين أولئك العلماء الذين أترعوا الدنيا علماً ، وملأوا آفاق الارض نوراً وهدى ؟ أين مواكب الخلفاء حيث . . .

---

(١) من : ماد عيد .

(٢) كذلك قال التاريخ .

الخيل تصهل والفوارس تدّعي والبيض تلمع والاسنّة تزهر

ومشيهم في رحاب بيت الله ...

... مشيـة خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبر

أين فرسان المنابر وأبطالها ؟

أين جيران المحاريب وجلاسها ؟

أين ... أين . . ؟

يا أسفي ! لقد سرق المسجد ، وهدم المنبر ، وضاع المحراب ، ولم تحفظ الحجارة يا بغداد مآثرك ومصانعك ، ولا وعت الارض ذكريات حبك ، ولا أبقى الجرّ رنات عيدانك ... أفلا حفظتها قلوب أقسم أصحابها انهم ذاكرو عهدك وأنهم مرجعو مجدك ؟

فأين مسجد بغداد الجامع يا مديرية الاوقاف ؟

أين المسجد يا إدارة الآثار ؟

أين المسجد يا من اتخذتم المسجد بيوتاً ودكاكين وتركتم المنــــارة منحنية عليه تبكي !

أين المدرسة النظامية يا من أقمتم على انقاضها سوق الشورجة لتبيعوا فيه البصل والثوم وقد كانت تباع فيها عيّوات العلماء وعصــارات عقولهم وقلوبهم ؟

لا تحزني يا بغداد واصبري فان كل شيء يعود ما بقي في القلب إيمان ، وفي الفم لسان ، وفي اليد سنان

. . .

والتفت ورائي ، فاذا بغداد قد اختفت وراء الافق ، وغابت مساوب الاعظميه التي تحاذي النهر ، تنكشف تارة فتضيء ثم تختفي في ظلال النخيل ، كشاعر منفرد متأمل ، او محب متغزل ، يناجي طيف الحبيب ، ويسامر ليالي الوصال التي تلوح له صورها . والنهر يطلع عليها مرة بصفحته البيضاء المشرقة التي تشبه أمنية بدت لحالم ، ثم يحجبه عنها النخيل ، ويمحوه الظـــلام كما تمحو الحياة بواقعها الاحلام وتطمس صور الاماني ...

وغابت شوارع الصالحية ذات الفتنة والجلال ، وغابت المآذن الرشيقة ، وغابت القباب ... وبقيت انا والماضي !

هذا الماضي الذي طالما قاسيت منه ، وطالما كابدت ، ثم كلما أوغلت به انحداراً في اعماق نفسي ، ودفنته في هوة الذكرى ، وقلت مات ، عاد حياً كاملاً تثيره نغمة ، وتهيجه صورة ، ويبعثه بيت من الشعر .. فيبعث بحياته آلامي .

غابت بغداد ، فسلام على بغداد .

واشهدوا أنه ما بعد دمشق بلد احب الي من بغداد ، و العتابا نغمة اوقع في قلبي من الابوذية ، ولا بعد الحور شجر اجمل في عيني من النخيل ، ولا بعد بردى نهر أعز على نفسي من دجلة .

أستغفر الله ! إلا حَرَم الله ومدينة نبيّه ، فهما والله أحب البـــلاد إليّ ، وماؤهما ألذ المياه في فمي ، وشجرهما أبهى الشجر في بصري . .

السلام عليك يا بغداد وعلى ساكنيك السلام ...

* * *

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٨	٣	تسلّمها	تسنّمها
١٠٠	١٢	عصبة	عصبيّة

آثار المؤلف

كتب نفدت

- رسائل الاصلاح ١٣٤٨ هـ
١- بشار بن برد ١٣٤٨ هـ
٢- رسائل سيف الاسلام ١٣٤٩ هـ
٤- الهيثميات ١٣٤٩ هـ
٥- في التحليل الادبي ١٣٥٣ هـ
٦- عمر بن الخطاب جزآن ١٣٥٢ هـ
٧- كتاب المحفوظات ١٣٥٥ هـ
٨- في بلاد العرب ١٩٣٩ م
٩- من التاريخ الاسلامي ١٩٣٩ م

كتب صدرت حديثاً

١- أبو بكر الصديق (طبعة ٢) ١٣٧٢ هـ
٢- قصص من التاريخ ١٩٥٧ م
٣- رجال من التاريخ ١٩٥٨ م
٤- صور وخواطر ١٩٥٨ م
٥- قصص من الحياة ١٩٥٩ م
٦- في سبيل الاصلاح ١٩٥٩ م
٧- دمشق ١٩٥٩ م
٨- أخبار عمر ١٩٥٩ م
٩- مقالات في كلمات ١٩٥٩ م
١٠- من نفحات الحرم ١٩٦٠ م
١١- سلسلة حكايات من التاريخ ١٩٦٠ م
١٢- هتاف المجد ١٩٦٠ م
١٣- من حديث النفس ١٩٦٠ م
١٤- الجامع الاموي ١٩٦٠ م
١٥- في اندونيسيا ١٩٦٠ م
١٦- فصول اسلامية ١٩٦٠ م
١٧- صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق) ١٩٦٠ م
١٨- فكر ومباحث ١٩٦٠ م
١٩- مع الناس ١٩٦٠ م
٢٠- بغداد ١٩٦٠ م

الفهرس